

معركة حطين

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

معركة حطين

٥٨٣هـ - ١١٨٧م

محمد الانطاكي

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

لماذا معركة حطين

لم تكُنْ معركةُ حِطينَ سِوى حَلْقةٍ واحدةٍ في سِلْسلَةِ الحُروبِ الطَّاحنةِ التي أَشْعلتِ البابويَّةُ نارَهَا على مَدى أربعةِ قُرون، والتي دُعِيَتْ في التاريخِ باسمِ الحروبِ الصَّليبيَّةِ. ومع ذلك، فإنَّها تُعَدُّ بِحَقٍّ أَشهرَ مَعْركةٍ في هذهِ الحروبِ وأَخْطَرَها، وذلك لأسبابٍ عديدةٍ هذهِ أهمُّها:

١ - كانتْ معركةُ حِطّينَ أوّلَ معركةٍ جِدِّيَّةٍ قابلَ بِها الشرقُ الإسلاميُّ أعداءَهُ الصليبيّينَ.

٢ - وكانتْ إعلاناً بيَقَظَةِ هذا الشرقِ، وبوَعْيِهِ العَميقِ لما يُراد له من المَحْقِ والتَّدْمِيرِ.

٣ - وأَنزلتْ بالصليبيينَ أَفدحَ الخسائرِ في الأرواحِ والمُمْتَلكاتِ مَعاً.

٤ - وكانتْ نُقطةَ انعطافٍ بينَ مرحلتَينِ، كانَ المسلمونَ في أولاهما مدافِعِينَ، فأصبحوا في الثانيةِ مُهاجِمِينَ.

٥ - وبرهنَتْ على أنَّ ما أصابَهُ الصليبيونَ من نجاحٍ في المَرْحلةِ الأولى ما كان له أن يكونَ لولا اختلافُ المسلمِينَ وتهاوُنُهُم، وأنَّ هؤلاءِ المسلمِينَ إذا أَخلَصُوا النِّيَّةَ، ووحَّدوا الكلمةَ، لم يكنْ لعدوِّهِم سبيلٌ إليهم، مهما بلغَ هذا العدوُّ من قُوَّةٍ.

٦ - وقَضَتْ نِهائياً على أسْطورةِ الفارسِ الصَّليبيِّ الذي لا يُقْهَرُ.

صلاح الدين الأيوبي

هو بطلُ قِصَّتِنَا هذهِ، وَألمَعُ شَخْصِيَّةٍ في تاريخِ الحروبِ الصليبيَّةِ كُلِّها. ولن نذكرَ في تعريفِهِ هَهُنا إلاَّ ما يَتَعلَّقُ بأَصْلِهِ، وبالفَتْرَةِ التي سَبَقَتِ اشْتراكَهُ في حوادثِ القصةِ، أَمّا ما تَلا ذلكَ فسوفَ يأتِي مُفَصَّلاً عندَ عَرْضِ هذهِ الحوادثِ.

كانَ جَدُّ صلاحِ الدينِ، وهو المَدْعُوُّ شَادِي بنَ مَرْوانَ، واحداً من أَشرافِ الأكرادِ القاطِنِينَ بمدينةِ «دُوِيْنَ» في أَذْرَبِيجَانَ.

نَزَحَ شادِي مِن دُوِينَ، واسْتقرَّ ببغدادَ مع وَلَدَيْهِ: نجمِ الدينِ أَيّوبَ، وأَسَدِ الدينِ شِيرْكُوهْ.

اتَّصَلَ شادِي بشُحْنَةِ بَغْدادَ (مُحافِظِها) مُجاهِدِ الدينِ بَهْرُوزَ وَخَدَمَهُ، فجعلَهُ هذا والياً على مدينةِ تكْرِيتَ في شِمالِ العِراقِ.

ماتَ شادِي فَخَلَفَهُ في وِلايةِ تكْريتَ ابنُهُ الأكبرُ نجمُ الدينِ أَيوبُ. وفي أَحدِ الأيامِ مَرَّ عِمادُ الدينِ زَنْكِي بِتكَرْيتَ هارِباً من معركةٍ خَسِرَهَا أمامَ الخليفةِ العَبّاسِيِّ، فقامَ نجمُ الدينِ أيّوبُ والي المدينةِ بمُسَاعَدَتِهِ على اجتيازِ نهرِ دِجْلَةَ، وتقديمِ ما يلزمُهُ مِن قُوت ٍلَهُ وعَلَفٍ لِدَوابِّهِ، فَحَفِظَ لهُ عِمادُ الدينِ زَنْكِي هذهِ اليَدَ البَيْضاءَ.

وفي يومٍ من أيامِ عامِ ٥٣٢ هـ قَتَلَ أَسَدُ الدينِ شِيرْكُوهُ أَحَدَ ضُبّاطِ القَلْعَةِ إِثْرَ شِجارٍ نَشِبَ بيْنَهُما. فلما بَلَغَ الخبرُ شُحْنَةَ بَغدادَ (مُحَافِظَها)، غَضِبَ على

الأخوَيْنِ نَجْمِ الدينِ وأَسَدِ الدينِ، وأَمَرَهُما بالخروج مِن تكْرِيتَ.

وفي يومِ الرَّحيلِ وُلِدَ لِنَجْمِ الدّينِ طِفْلٌ سَمّاهُ صلاحَ الدينِ.

مَضى الأخَوانِ المَطْرودانِ إلى المَوْصِلِ، فَأَكرمَ أَتابِكُها عِمادُ الدينِ زَنْكي وِفادَتَهُما وعَرَفَ لهما سابِقَ مَعْروفِهِما مَعَهُ يومَ سَاعداهُ على الهَرَبِ.

عاشَ نجمُ الدينِ وأَخوهُ شِيرْكُوه في الموصِلِ بسَلامٍ، ومَعَهُما المولودُ الصغيرُ صلاح الدينِ، يَعملانِ في جَيْشِ زَنْكِي، فَشَهِدا عِدَّةَ مَواقِعَ، وبَرْهَنا على مَقْدِرةٍ فائقَةٍ، فَحَظِيا بعَطْفِ زنكي وثِقَتِهِ. ولما سَقَطَتْ بَعْلَبَكُّ في يدِ زَنْكِي سنةَ ٥٣٤هـ - ١١٣٩م عَهِدَ بها إلى أَيُّوبَ وجَعَلَهُ مُحافظاً عَلَيْها.

بعدَ مَوْتِ عِمادِ الدينِ زنكي، الْتَحَقَ أَسَدُ الدينِ شِيرِكُوه بخدمةِ ابنِهِ نورِ الدينِ محمود أميرِ حَلَبَ، فَوَثِقَ هذا بِهِ وجعلَهُ قائداً لجيشِهِ. أَمّا نجمُ الدينِ أَيّوبُ فقد بَقِيَ في بَعْلَبَكَّ والياً عليها، ومعَهُ ابنُهُ الصغيرُ صلاحُ الدينِ. ولكنَّ أمراءَ دِمَشْقَ طَمِعُوا في اسْتِرْجاعِ بعلبكَّ التي كانتْ تابعةً لِدمشقَ قبلَ أَنْ يَنْتَزِعَها مِنْهم عمادُ الدينِ. ولما رَأى نجمُ الدينِ أَنَّه أضعفُ مِن أَنْ يَحْمِيَها، قَبِلَ أَنْ يُسَلِّمَها لِلدِّمَشْقِيِّينَ مُقابِلَ أَنْ يُقْطِعُوه عَشَرَ ضِياعٍ بجوارِ دِمَشْقَ، وأَنْ يَهَبُوا له قَصْراً في دِمَشْقَ نَفْسِها لِسُكْناهُ. وإذْ قَبِلَ أمراءُ دِمَشْقَ بِشُروطِهِ انْتَقَلَ إلى دمشقَ مَعَ أسرتِهِ، وأَقامَ بِها.

أَظهرَ نجمُ الدينِ أَيوبُ خِلالَ إقامتِهِ في دمشقَ مِن الذكاءِ والخبرةِ ما حبَّبَهُ إلى أميرِها الذي راحَ

يُعْلِي مَرْتَبَتَهُ درجةً بعدَ درجةٍ حتى جعلَهُ القائدَ العامَّ لجيشِهِ.

وماتَ أَميرُ دمشقَ «أَنَر» فأصبحَ نجمُ الدينِ صاحبَ الكلمةِ العُليا في المدينةِ. وعندئذٍ عادَ الزنكيّون يَرْنُونَ بِأَبصارِهِمْ إلى ضَمِّ دمشقَ إلى دَوْلَتِهِم، فأرسلَ نورُ الدينِ محمودٌ أَميرُ حلبَ قائدَهُ العامَّ أسدَ الدينِ شِيركُوه لاحتلالِ دمشقَ. ولكنَّ الأمْرَ لم يَحْتَجْ إلى قِتالٍ، لأنَّ نجمَ الدينِ لم يَشَأْ أن يُقاتِلَ أَخاهُ أَسدَ الدينِ شِيركُوه، ولا أَنْ يَقِفَ حائلاً دونَ أَهدافِ نورِ الدينِ ابنِ سَيِّدِهِ عِمادِ الدينِ زَنْكي. وهكذا سَلَّمَ المدينةَ سِلْماً بعدَ مُفاوضاتٍ بينَهُ وبينَ أَخيهِ دامتْ سِتَّةَ أَيامٍ، ودخلَ في خِدمةِ نورِ الدينِ الذي أكرمَهُ إِكراماً بالغاً لِمُبادرَتِهِ الطَّيِّبَةِ، وَوَثِقَ بِهِ ثِقَةً عَمْياءَ، فجعلَهُ حاكِماً لِمدينةِ دِمَشْقَ.

بعدَ سَنَواتٍ صارَ صلاحُ الدينِ شاباً مُكْتَمِلَ الشبابِ، تَوَفَّرَ لهُ قَدْرٌ كبيرٌ من الثَّقافةِ العَسْكريةِ والأدبيةِ والدِّينيةِ يتناسبُ مَعَ كَوْنِهِ ابناً لقائدٍ عامٍ وحاكمٍ لمدينةِ دِمَشْقَ.

هذا أصلُ صلاحِ الدينِ الأيّوبيّ، وهذه نَشْأَتُهُ. وسنترُكُهُ الآنَ شاباً في دمشق لنعودَ إليهِ عندَمَا يبدأ دورُهُ في مسرحيةِ الحروبِ الصليبيةِ الضخمةِ.

* * *

أَهمُّ شخصياتِ مَسرحيتِنَا التي ستلعبُ أدوارَهَا على مَسرحٍ هائلِ الاتِّساعِ، يَمْتَدُّ على كلِّ قارّاتِ العالمِ القَديمِ: آسِيَةَ، وأوروبَّةَ، وإفْرِيقيَّةَ.

وطبيعيٌّ أنّنا لن نَجِدَ، عندَ رفعِ السِّتارِ عَنِ المشهدِ الأوّلِ، كلَّ هذهِ الشخصياتِ على المسرحِ،

بل سَنَجِدُ بعضَها فَقَطْ، وهيَ الشخصياتُ التي تَبْدَأُ أَدوارُها مَعَ بدايةِ المسرحيةِ. وعلى هذا نَرَى من المفيدِ أَنْ نَسْتَرْجِعَ إلى الذاكرةِ وَضْعَ كلِّ شَخْصيَّةٍ مِن هذهِ الشخصياتِ قبلَ أنْ تَلْعَبَ دورَهَا في الفصلِ الأَوَّلِ:

١ ــ الدَّولةُ البيزنطيَّةُ: خَسِرَتْ أَمامَ السلاجقةِ كلَّ شِبْهِ جَزيرةِ الأَناضولِ، وأصبحتْ عاصِمَتُها مُهَدَّدَةً بالهجوم عَلَيها في كلِّ لَحْظَةٍ. وهي تُرَحِّبُ بكل مساعدةٍ تأتيها من الغربِ.

٢ ــ السَّلاجِقَةُ: بَلَغُوا أَقْصى امْتِدادٍ لهم، ولكنَّهم كانوا مُتَفَرِّقِينَ مُتنازِعِينَ يُقاتِلُ بعضُهم بعضاً.

٣ ــ الفاطِمِيّونَ: لم يبقَ لَهُمْ مِن إمْبَراطورِيَّتِهِم سِوى مِصْرَ وجُنوبِ الشامِ. ولكنّهم كانوا لا يزالونَ

يَمْلِكون اسطولاً قوياً يُعَدُّ مُنافِساً خَطيراً للأسطولِ البيزنطيِّ.

٤ ـ الخِلافةُ العَباسيَّةُ: لم يكنْ لها سِوى سُلطةٍ رُوحيَّةٍ على البلادِ التابعةِ لها اسْمِياً، أما السُّلطةُ الحقيقيَّةُ في هذهِ البلادِ فكانتْ بأَيدي الأمراءِ السَّلاجقةِ أو قُوّادِهِمُ البارِزينَ مِنَ الأَتْراكِ.

٥ ـ البَابَوِيَّةُ: مُنْزَعِجَةٌ جداً من المَدِّ الإسلاميِّ الذي يَزْحَفُ نَحْوَها من ثَلاثِ جِهاتٍ. فالسَّلاجقةُ بَلَغوا أسوارَ القُسْطَنْطِينيَّةِ مِن الشرقِ، والمُرابطونَ المغاربةُ استعادُوا كلَّ ما خَسِرَهَ المسلمونَ في إسبانية تحتَ حُكْمِ دُوَلِ الطَّوائِفِ، وراحوا يُهَدِّدونَ باجتيازِ جبالِ البَرانِسِ والإنْسِياحِ في سُهولِ فِرَنْسَةَ الجُنوبِيَّةِ. أما في الجُنوبِ فَقَدِ احتَلَّ المسلمونَ جَزيرةَ صِقِلِّيَّةَ، وأَجزاءً مِن جُنوبِ إيطالِيَةَ. بل إنَّ

بعضَ غزَوَاتِهِم وصلتْ إلى روما نفْسِها. ولم يَتَمَكّنِ العالمُ المسيحيُّ مِن إيقافِهِم إلا بفَضْلِ النُورمانِ الّذينَ اسْتَطاعوا أخيراً استعادَةَ صِقِلّيَّةَ، وجَعَلُوا رُوجَر النورمانديَّ أَميراً عَلَيْها. ولكنَّ هذا لا يَكْفي في رَأيِ البابويةِ، إذْ لا بُدَّ مِن مطارَدَةِ المسلمينَ شَرْقاً وغَرْباً للقضاءِ عليهم نِهائياً.

٦ ــ الجُمهوريّاتُ التّجاريّةُ الإيطالِيّةُ: وهذهِ شَخْصِيَّةٌ لم يَسْبِقْ لنا تَعْريفُها، وذلكَ لأنَّ دَوْرَها في المسرحيةِ ثانَوِيٌّ. فلا بأسَ إذَنْ مِن تعريفِها هُنا بِبِضْعِ كلِماتٍ:

هي مُدُنٌ ساحليَّةٌ إيطاليَّةٌ، أَهمُّها البُنْدُقِيَّةُ وجَنَوا وبِيزا. أَلَّفَتْ كلُّ مدينةٍ جُمهوريةً مستقلةً تقومُ حياةُ مواطِنيها على التجارةِ بينَ الشرقِ والغربِ، فكانت أَساطِيلُها التّجاريَّةُ تَتَرَدَّدُ بينَ سواحِلِ الشامِ ومِصْرَ

وأوروبَّةَ حاملةً مِن الشرقِ التَّوابِلَ والحَرِيرَ والأنْسِجَةَ والطُّيوبَ وغيرَها مِن السِّلَعِ الشرقيةِ المرغوبِ فيها في أوروبَّةَ.

كانتْ هذهِ الجمهورياتُ على استعدادٍ لتسخيرِ أَسَاطِيلِها في كُلِّ مشروعٍ هَدَفُهُ السَّيْطَرَةُ على الشرقِ مُقابِلَ ما يُمكنُ أَنْ تَحْصُلَ عليهِ مِنِ امتيازاتٍ تجاريةٍ لِرَعاياها.

* * *

آنَ الأوانُ لأنْ نَرْفَعَ السِّتارَ عَنِ المشهدِ الأولِ مِنَ المَسْرَحِيَّةِ المُحْزِنَةِ.

الحملة الصليبية الأولى

بيزنطة تطلب نجدة الغرب

نحنُ الآنَ في شِمالِ إيطاليةَ، في مدينةِ بْيا كَنْزا، حيثُ دَعَا البابا إيربانُ الثاني مُمثِّلي كلِّ الكنيسةِ الغربيةِ إلى الاجتماعِ بهِ في أولِ مجمعٍ كبيرٍ لبابَوِيَّتِهِ. وراحَ الأساقِفَةُ يَتَقاطرونَ على مَقَرِّ الاجْتماع من كلِّ مكانٍ. فلما كانَ شهرُ آذارَ مِن عامِ /١٠٩٥م/ اكْتَمَلَ النِّصابُ، وانعقدَ المَجْمَعُ بكامِلِ هيئتِهِ.

وقد شَهِدَ أعمالَ المجمعِ قومٌ لم يكونوا مِن القُسُوسِ

ولا الأساقِفَةِ، بل هُم رُسُلٌ مِن بيزنطَةَ، أَرْسَلَهُم إمْبراطورُهَا أَلِكْسِيُوسُ لإقناعِ البابا بمساعدةِ بيزنطةَ ضِدَّ أَعدائهَا المسلمِينَ، وذلكَ بِدَعْوَةِ فرسانِ الغَرْبِ إلى التَّطَوُّعِ للعملِ في الجيشِ البيزنطيِّ الذي باتَ يَشْكو نَقْصاً خَطِيراً في عَدَدِ أَفرادِهِ.

أَظهرَ الباب إيربانُ روحَ العَطْفِ، إذْ أَنَّ جانباً مِن بَرامِجِهِ كان يَتَمَثَّلُ في حَضِّ فُرسانِ الغَربِ المتنافِسِينَ على أَنْ يُقاتِلُوا في جهاتٍ نائيةٍ، ومِن أَجْلِ غايةٍ بالغةِ القَدَاسَةِ، فتقرَّرَ دَعْوَةُ الرُّسُلِ البيزنطيّينَ للتَّحدثِ إلى الحاضِرِينَ.

لم نَقِفْ بالضَّبْطِ على ما قَالَهُ رُسُلُ بيزنطةَ في الاجْتماعِ. ولكنْ مِن المُؤكَّدِ أَنَّهم رَكَّزُوا على النَّاحيةِ التي تُثِيرُ مَشَاعِرَ الأساقِفَةِ المُجْتمعِينَ، وهي: أَنَّه مَا لَمْ تكُنْ بيزنطةُ قَوِيَّةً، وتسترجِعْ مِنْ

أيدي المُسْلِمينَ ما فَقَدَتْهُ مِن أَمْلاكِهَا في الشامِ والأناضُولِ، فسوفَ يَظَلُّ طريقُ الحُجّاجِ المَسيحيّينَ إلى بيتِ المقدسِ محفوفاً بالأخطارِ، وليسَ بِبَعيدٍ أنْ يَنْقَطِعَ نِهائياً.

تَأَثَّرَ الأساقفةُ بما سَمِعُوا، وَوَعَدُوا رُسُلَ الإمبراطورِ خَيْراً. أما البابا إيربانُ فإنَّه كانَ يَقْدَحُ زنادَ فِكْرِهِ لِتَدْبيرِ خُطَّةٍ أَكْثَرَ شُمولاً وأَعظَمَ مَجْداً، خُطَّةِ حَرْبٍ مُقَدَّسَةٍ تُشَنُّ على الإسلامِ في كلِّ مكانٍ، وتسعى إلى هدفٍ واحدٍ هوَ القضاءُ التامُّ على المُسْلِمِينَ.

مجمع كليرمونت (إعلان الحرب المقدسة)

وهذا دعا البابا إيربانُ الثَّاني إلى عقْدِ مَجْمَعٍ

كَنَسِيٍّ آخرَ في كْلِيْرمُونت بِفرَنْسةَ، في الفترةِ الواقعةِ بين ١٨ و ٢٨ تشرينَ الثاني عام ١٠٩٥م.

شَهِدَ هذا المجمعَ ٣٠٠ مِن رجالِ الدينِ. وبعدَ الفَرَاغِ من الأعْمالِ وإصدارِ القراراتِ، أَعلنَ البابا أَنَّه يُرِيُد أَن يَنْتَهِزَ هذهِ الفُرْصَةَ لِيُلْقِيَ بإِعلانٍ خطيرٍ على الناسِ، في جَلْسَةٍ عَلَنِيَّةٍ عامَّةٍ.

أَقبلَ الناسَ للاستماعِ لإعلانِ البابا. ولكنَّ الكاتِدْرائيَّةَ ضاقَتْ بِهِم على الرُّغْمِ مِن ضَخامَتِهَا، فتقرَّرَ إقامةُ الكُرْسِيِّ البابوِيِّ على مِنَصَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ تُطِلُّ على الفضاءِ، خارجَ البابِ الشرقيِّ للمدينةِ. فلمّا اكتملَ اجتماعُ الجماهيرِ، نهضَ اير بانُ فقالَ لَهُم:

ــ «أَيُّها الجُنْدُ المسيحيونَ، لقد كُنْتُم تُحاولونَ مِن غيرِ جَدْوىً إِثارةَ نِيرانِ الحروبِ والفِتَنِ فيما

بَيْنكَمُ، أَفِيقُوا، فقد وَجَدْتُمُ اليومَ داعِياً حقيقيّاً إليها. لقد كُنْتُم سببَ انزِعاجِ مُواطِنِيكُم وَقْتا ما، فاذهبَوا الآنَ وأزْعِجُوا البَرابِرَةَ. اذْهَبُوا وخَلِّصُوا البِلادَ المُقَدَّسَةَ مِن أَيْدِي الكُفَّارِ.

« أَيُّها الجندُ، أَنتمُ الذينَ كُنتُمْ مَنْبَعَ الشرورِ والفِتَنِ، أَلا هُبُّوا اليومَ وَقدِّمُوا قُواكُم وسَواعِدَكُم ثمناً لإيمانِكُم، وتَسَلَّحُوا بِسِلاحِ الدينِ والتَّقْوى؛ فإنَّكُم بذلكَ تنالونَ الجزاءَ والنعيمَ الدائمَ.

« إنكمُ إنْ انْتَصَرْتُم على عَدُوِّكُم كانتْ لكُم مَمالِكُ الشرقِ مِيراثاً، وإنْ أنتم خُذِلْتُم فَستَموتونَ حيثُ ماتَ يسوعُ، فلا ينساكُم الربُّ مِن رَحْمَتِهِ، فيحلُّكُم مَحلَّ أَوْليائهِ.

« هذا هوَ الوَقْتُ الذي تُبَرْهِنونَ فيهِ على أَ

فِيكُم قُوَّةً وعَزْماً وبَطْشاً وشَجَاعَةً. هذا أوانٌ تُظهِرُونَ فيهِ شَجاعَتَكُم التي طالَما أَظْهرتُمُوهَا وقتَ السِّلْمِ. وإنْ كانَ مِن المُحَتَّمِ أَنْ تثأَروا لأَنْفُسِكُم، فاذْهَبُوا واغْسِلُوا أيْدِكَمُ بدماءِ أولئكَ الكُفَّارِ».

فَعَلَتْ بَلاغةُ البابا وحَمَاسَتُهُ فعلَ السِّحرِ في الناسِ، فَبَكَوْا وَرَاحُوا يَهْتِفُونَ:

ـــ هكَذا أرادَ اللهُ.. هكَذا أرادَ اللهُ!

ولم يَكَدِ البابا يَنْتَهِي مِن خِطابِهِ حتى نَهَضَ مِن مَجْلِسِهِ اسْقُفُّ «لي بْوِيه»، فَرَكَعَ أَمامَ عَرْشِ البابا، والْتَمَسَ مِنه الإِذْنَ بِأَنْ يَلْتَحِقَ بالحَمْلَةِ المُقَدَّسَةِ، فقَبلَ البابا الْتِمَاسَهُ، ونهضَ مَرَّةً أخرى، وأَمَرَ سامِعِيهِ بالانْصِرافِ إلى بِلادِهِمْ لِيُعِدُّوا أَنْفُسَهُم لِلْحربِ المقدسةِ.

بعد خطاب البابا

لم يكُنْ بينَ الذين استمعُوا لخطابِ البابا أحدٌ مِن الملوكِ أَوِ الأمراءِ أَوِ القُوَّادِ. بل كانوا جميعاً مِن الفُقَراءِ والوُضَعاءِ، مِمَّنْ لا فائدةَ مِنهم ومِنْ حَمَاسَتِهِم. ولذا وَجَدَ البابا نَفْسَهُ مُضْطَراً إلى عَقْدِ مُشاوراتٍ أخرى مَعَ أَساقِفَتِهِ، وتَقَرَّرَ بعدَها ما يَلِي:

١ ــ كُلُّ مَنِ ارتَكَبَ جُرْماً يعاقَبُ عليه، يُصْبِحُ في حِلٍّ من العُقوبةِ إذا اشْتركَ في هذهِ الحربِ المقدسةِ.

٢ ــ كلُّ مالٍ مِن عِقارٍ أو مَتاعٍ يتركُهُ المحاربُ الذاهبُ إلى الأرضِ المقدسةِ، يكونُ تحتَ حِمايةِ الكنيسةِ أثناءَ غِيابِهِ. و يُعْتَبَرُ الأسْقُفُّ المحليُّ مَسْؤولاً

عن سَلامَتِهِ، و يَنْبغي أنْ يَرُدَّهُ كامِلاً حِينما يعودُ المحاربُ إلى وطنِهِ.

٣ ــ ينبغي لكلِّ مُشترك في الحملةِ أنْ يَحْمِلَ عَلاَمةَ الصَّلِيبِ. ولا بُدَّ أن يَجْعَلَ على كَتِفِ سُتْرَتِهِ صَليباً مِن نسيجٍ أحمرِ اللَّوْنِ.

٤ ــ على كلِّ مَنِ اتَّخَذَ الصليبَ أَنْ يَفِيَ بالوَعْدِ بالمَسِيرِ إلى بيتِ المقدسِ. فإذا رَجع عَن عَزْمِهِ، أَو نَكَصَ بعدَ مَسِيرِهِ، طُرِدَ مِن الكنيسةِ.

٥ ــ لا يَنْبَغِي **لِلقسوس** والرُّهبانِ أَنْ يَتَّخِذُوا الصليبَ إلاّ بإِذنِ الأسْقُفِّ ورئيسِ الدَّيْرِ، كما لا ينبغي لأحدٍ من العامَّةِ أَنْ يَسيرَ إلاّ بعدَ مَشُوَرةِ مُستَشارِهِ الرُّوحِيِّ.

٦ ــ كلُّ بَلَدٍ يُخَلَّصُ مِن أَيدِي الكُفَّارِ، فَيَجِبُ

أَنْ يُرَدَّ لِلْكنيسةِ المَحَلِّيَّةِ مالَها بِهِ مِن حُقوقٍ وأَمْلاكٍ.

٧ ــ يَنبغِي أَنْ يكونَ كلُّ فردٍ جاهِزاً لِمُغادرَةِ وَطَنِهِ في عِيدِ العَذْراءِ (١٥ آب) في السَّنَةِ التَّالِيَةِ، بعدَ أَنْ يَتِمَّ جَنْيُ المحاصيلِ، وينبغي أَنْ تَلْتَقِي الجيوشُ في القُسْطنطينيةِ.

ثم تَقَرَّرَ أَنَّه لا بُدَّ مِن تعيينِ قائدٍ للحملةِ، فاتَّخَذَ المجمعُ قراراً بالإجماعِ بأَنْ يكونَ أَسْقُفُ لِي بويه قائداً لِلْحملةِ.

وأَرْسَلَ البابا أَساقِفَتَهُ بهذِهِ القَراراتِ لِتَبْلِيغِها لِمُلوكِ وأمراءِ العالِمِ المسيحيِّ في الغربِ.

ملبّو النداء

لم تكُنِ الاسْتجابةُ لِنِداءِ البابا واحدةً عِنْدَ

مُخْتَلِفِ الطَّبَقاتِ، فالمُلوكُ مَثلاً لم يُبالوا بالفِكْرَةِ على الإطلاقِ، لأنّهم لم يَجِدُوا في قراراتِ مجمع كليرمونتَ ما يُغْرِيهِم بالمُخاطَرَةِ، وَرَأَوْا أَنَّ بَقاءَهُم مُتَرَبِّعِينَ على عُروشِهِم خَيْرٌ لهم مِن المُغامَرَةِ مِنْ أجلِ فُتوحاتٍ لَنْ تَعودَ فوائدُها إلاّ على الكنيسةِ الشَّرْقِيَّةِ أَوِ الغَرْبيةِ. وكذلكَ فَعَلَ كِبارُ الإقطاعِيِّينَ الذينَ قَنِعُوا بِما في أَيْديهِمْ مِن أَمْلاكٍ شَاسِعَةٍ، وَرَأَوْا أَنَّ ما سيحصُلونَ عليهِ مِن هذهِ الحملةِ لا يَفِي بالنَّفَقاتِ البَاهظةِ التي سيتكلفونَها فِيها.

ومعَ ذلك، فقد لَبّى النداءَ طوائفُ كثيرةٌ مِن إيطاليةَ وفِرَنسةَ واسبانيةَ وانكلترة وألمانية واسكتلندةَ والدانِمَرْكِ. وكانَ لكلِّ فِئَةٍ أَهدافٌ وغايات تُختلفُ عَن أهدافِ الأخرى وغاياتِها. وقد ظهرَ ذلك مُنْذُ البدايةِ وقبلَ أن يُخَلِّصُوا بلداً واحداً من أيدي الكُفّارِ!

وفيما يلي استعراضٌ لهذه الفئاتِ، مَعَ بيانِ أهدافِ كُلٍّ مِنْها:

١ ــ الفَلاّحونَ الذينَ لم يملكوا أرضاً. وقد رَجا هؤلاء أن يَجِدُوا في الشرقِ الأرْضَ التي افتقدُوها في بلادِهِم.

٢ ــ الفلاّحونَ الذينَ يملكونَ أرضاً، ولكنَّ أرضَهُم تَخَرَّبَتْ بسببِ غَزَواتِ المُتَبَرْبرينَ، وغَاراتِ الشِّماليّينَ، وتَحَطُّمِ الجُسورِ، وطُغْيانِ البَحْرِ والأنهارِ عليها، وبسببِ النَّهبِ والسَّلْبِ والحريق على أيدي قُطّاعِ الطُّرُقِ، أو العَساكِرِ الذين يَشُنّونَ حُروباً أَهْلِيَّةً صَغِيرةً. وكانتْ أهدافُ هذهِ الفِئَةِ كَأَهدافِ الفِئَةِ السَّابِقَةِ.

٣ ــ عامَّةُ الشعبِ الذينَ ضاقُوا بِبِلادِهِم بسَببِ

ما حدثَ سنةَ ١٠٩٤ مِن الفَيَضاناتِ والأوْبئَةِ، وما تَلاها سنة ١٠٩٥ مِنَ الجفافِ والمَجاعَةِ وكَثْرَةِ تَساقُطِ الشُّهُبِ. فكانتْ هذهِ الحملةُ فُرْصَتَهُم السانِحَةَ لِلْهجرةِ إلى مَكانٍ يُخَلِّصُهم مِمّا هُمْ فيه من ضِيقٍ.

٤ ــ بُسَطاءُ المُتَدَيِّنينَ الذينَ أَقْنَعَهُم بُطْرُسُ الناسِكُ، أَحَدُ دُعاةِ البابا، بِأَنَّ يوْمَ القِيامَةِ اقْتَرَبَ، وأَنَّهُ ينبغي المُبادَرَةُ إلى عَمَلٍ يُرْضِي الرَّبَّ، قَبْلَ أن تَحُلَّ الكارِثَةُ.

٥ ــ الفُقَرَاءُ الذينَ أَقْنَعَهُم بُطْرُسُ بِأَنَّهُ سَوْفَ يُخْرِجُهُم مِن حياةِ البُؤسِ والشَّقاءِ التي يَحْيَوْنَها، إلى الأرضِ التي تَفِيضُ باللَّبَنِ والعَسَلِ، والتي تحدَّثَتْ عنها الأناجيلُ.

٦ ــ قُطّاعُ الطُّرُقِ والمُجْرِمونَ والمُومِساتُ الذينَ وَجَدُوا في هذهِ الحملةِ فُرصةً للقيامِ بأعمالِهِم دونَ أَنْ يَخْشَوْا عِقاباً. بل إنَّ جَرائِمَهُم سيُنظرُ إليها على أَنَّها بُطولاتٌ.

٧ ــ أَبناءُ النُّبلاءِ المحرومُونَ. وهذهِ الفئةُ تُشْبهُ في وَضْعِها وأَهدافِها فِئَةَ الفلاّحِينَ الذين لا يَمْلِكونَ أرضاً. وقد نَشَأَتْ نتيجةَ النظامِ الإقطاعيِّ الذي كانَ سائداً في أوروبَّةَ. فبموجَبِ هذا النظامِ لا يَرِثُ لَقَبَ النبيلِ وأَملاكَهُ بعدَ مَوْتِهِ غيرُ ابنهِ الأكبرِ. أَمّا الأبناءُ الآخرونَ فليسَ أمامَهُم إلا أن يَعِيشوا عالَةً على أَخِيهِمُ الأكْبَرِ، وتحتَ رَحْمَتِهِ، وَعُرْضَةً لِنَزَواتِهِ. لِذا كان طبيعيّاً أَنْ يَبْحَثَ هؤلاءِ عَن مَجالاتٍ يَحصُلُون فيها على أرضٍ ولَقَبٍ.

٨ ــ النُّورْمانُ الذينَ كانوا دائماً مُسْتَعِدِّينَ

لِلْقيامِ بكلِّ مُغامَرَةٍ جَديدةٍ. و يأتي على رأسِ هؤلاءِ بُوهِمُنْدُ بْنُ جْوِيسْكارْد، الذي وَقَفَ أخوهُ رُوجِرُ في وَجْهِ مَطامِعِهِ في إيطاليةَ، وعَمُّهُ رُوجِرُ الذي حالَ بَيْنَهُ و بَيْنَ مَطامِعِهِ في صِقِلِّيَّةَ. فلم يَلْبَثْ أَنْ أَدرَكَ ما قد تُهَيِّئُهُ له الحربُ الصليبيةُ مِن فُرَصٍ، فاتَّخذَ الصَّليبَ مَعَ عَدَدٍ كبيرٍ مِن أَفْرادِ أسْرَتِهِ وأَصْدِقائهِ.

٩ ــ رِجالُ الدينِ المُتَعَصِّبونَ الذينَ رَجَوْا ــ بعدَ أن يُسَيْطِرُوا على الكنائسِ الشَّرقِيَّةِ ــ أَنْ يُعِيدوا إلى الكنيسةِ المسيحيةِ وَحْدَتَها المفقودةَ.

١٠ ــ النُّبَلاءُ ذَوُو الطُّموحاتِ البعيدةِ، ومُحِبُّو المغامراتِ، والطامعونَ في ثَرواتِ الشَّرْقِ الأَسْطُورِيَّةِ التي كانوا يَسْمعونَ عَنْها مِن الحُجّاجِ العائِدِينَ من الأراضِي المُقَدَّسَةِ.

١١ ــ جُمهورياتُ إيطاليةَ التجاريَّةُ الطامِعَةُ في الحُصُولِ على امْتِيازاتٍ تِجاريةٍ تَزِيدُ أَرباحَها، والخائفةُ مِنِ استِيلاءِ السَّلاجقةِ على الأسْواقِ الشَّرْقِيَّةِ، ومن إقفالِ هذهِ الأسواقِ في وَجْهِها، الأمرُ الذي سَيُؤدِّي إلى فَقْرِها وخَرَابِها.

تِلكَ هِيَ الفِئاتُ التي شارَكَتْ في الحملةِ الأولى، وحملةِ الشُّعوبِ أو الرَّعاعِ التي سَبَقَتْها، وتلكَ هِيَ أَهدافُها المُتَباعدةُ المُتَنافِرَةُ. فلم يَكُنْ مِنَ العَجيبِ أَنَّها اختلفَتْ قَبْلَ أن تُحقِّقَ أَوَّلَ نَجاحٍ، ولكنَّ العَجيبَ أَنَّها نَجَحَتْ، وأَنَّها وَصَلَتْ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ وافْتَتَحَتْهُ. ولكنَّ ذلكَ لم يكُنْ بسببِ وَحْدَتِها أَو إيمانِها، بل كانَ بِسَبَبِ فُرْقَةِ المُسْلِمِينَ وتَنافُرِهِمْ.

بطرس الناسك وحملة الرعاع

هوَ أَحَدُ الرُّهبانِ الذينَ نَدَبَهُمُ البابا لِلدَّعْوَةِ إلى الحربِ الصليبيةِ. كانَ قصيرَ القَامَةِ، داكِنَ اللَّوْنِ، ذا وَجْهٍ طويلٍ نحيلٍ، أَشْبَهَ ما يكونُ في قُبْحِهِ بِوَجْهِ الحمارِ الذي يَمْتَطِيهِ، والذي لَقِيَ مِن التكَّريمِ والتَّبجيلِ مِثْلَما لَقِيَ صاحِبُهُ. دَرَجَ بُطْرُسُ على أَنْ يَمْشِيَ حافِيَ القَدَمَيْنِ، وقدِ ارتَدَى مَلابِسَ رَثَّةً. لم يتناولْ فِي طعامِهِ الخُبْزَ أَوِ اللَّحْمَ، بل جَعَلَ غِذاءَهُ السَّمَكَ، واتَّخذَ النَّبيذَ شَراباً لَهُ، وعلى الرُّغْمِ من حَقَارَةِ مَظْهرِهِ، فإِنَّهُ كانَ ذا تَأْثِيرٍ قَوِيٍّ على سامِعِيهِ، إِذْ لم يَبْلُغْ في جَوْلَتِهِ الدِّعَائِيَّةِ مَدينَةَ كولونِيَةَ حتى بَلَغَ عَدَدُ أَتباعِهِ ١٥ ألفَ شَخْصٍ، ثم ازدادُوا بِمَنِ انْضَمَّ إليهم مِن ألمانيةَ حتى بَلَغُوا ٤٠ ألفاً، أَغْلَبُهم مِنَ

الرَّعَاعِ، وفيهمْ عَدَدٌ من صِغارِ النُّبلاءِ وقُطّاعِ الطُرُقِ والمُجْرِمِينَ.

لم ينتظرْ بُطرسُ حُلولَ المَوْعِدِ الذي حدَّدَهُ البابا لِمسيرِ الحملةِ، وهو ١٥ آب ١٠٩٦، لأنَّ جَيْشَهُ الضخمَ كانَ بحاجةٍ إلى مُؤنٍ لم تكنْ مُتَوَفِّرَةً في بلادِهِ، فغادرَ كولونيَةَ في ٢٠ نيسانَ ١٠٩٦ مُوَلِّياً وجهَهُ شَطْرَ القُسْطنطينيةِ، وهو يقودُ جَيْشاً هُوَ إلى العصاباتِ أَقْرَبُ منه إلى الجُيوش. وَلْنَنْظُرْ ماذا فعلَ هذا الجيشُ الذاهبُ لِتخليصِ قَبْرِ المَسيحِ.

ما كادَ جيشُ بُطرسَ يدخلُ بلادَ المَجَرِ، وأهلُها مَسيحيّونَ، حتى هاجَمَ جنودُهُ مدينةَ « سِمْلِنَ » واسْتَوْلَوْا على قَلْعَتِها، وقتلُوا أربعةَ آلافِ مَجَرِيٍّ، ونهبُوا كلَّ ما وقعَ تحتَ أَيْديهِمْ مِن الأمْوالِ والمَتاعِ، ثم أَسْرَعوا باجتيازِ نَهْرِ السَّافِ خوْفاً مِنَ

انتقامِ المَجرِيِّينَ. وحينَ اقتربُوا مِن بِلِغْرادَ هَرَبَ أَهْلُها مِنْها، وَلَجؤوا إلى الجِبالِ، فدخلَها جُنودُ المسيحِ، وأَشْعَلُوا بِها النِيرانَ بعدَ أَنْ نَهَبُوها. وفي صَباحِ اليَوْمِ التَّالِي استأنَفُوا مَسِيرهُمْ إلى مدينةِ صُوفيةَ، فهاجَمُوا أَسْوارَهَا، ولكنَّ حامِيَتَها شَنَّتْ عليهم هُجوماً مُضاداً، فأنْزَلَتْ بهم هَزِيمةً سَاحِقَةً، وتفرَّقُوا في كلِّ الجِهاتِ ولَقِيَ عَدَدٌ كبيرٌ منهم مَصْرَعَهُمْ، وَفَرَّ قائِدُهُم بُطْرُسُ إلى الجِبالِ. ثُمَّ أَعادُوا في اليومِ التالِي تجميعَ قُوّاتِهِم، ومَضَوْا في طَريقِهِم. وعندَ مَدينةِ بِيلابْلانْكا التي هَجَرهَا أهلُها خَوْفاً مِنْهم، تَوَقَّفَ بُطْرُسُ وجيشُهُ لِيَجْمَعُوا مَحاصيلَ المِنْطَقَةِ بَعْدَما نَفِدَتْ مُؤنُهُم. وانْضَمَّ إِلَيْهم في هذه الفترةِ عددٌ كبيرٌ مِن قُطّاعِ الطرقِ والمجرمينَ من سُكانِ تلك المناطِقِ.

بعدَ نَهْبِ المحاصيلِ استأنَفَ جيشُ المسيحِ مَسيرَتَهُ المُظَفَّرَةَ نحوَ غايَتِهِ المقدسةِ. فلمّا بَلَغُوا القُسطنطينيةَ خافَ الإمْبراطورُ أن يَفْعَلُوا بعاصمتِهِ الجميلةِ ما فَعَلُوهُ بتلكَ المُدُنِ البائسَةِ، فَأَنْزَلَهم خارِجَ الأسْوارِ، ومَنَعَهُم أَنْ يدخلوا العاصمةَ إلاّ في أَعْدادٍ قَليلةٍ، في مُدَدٍ مُحَدَّدَةٍ. ولكنَّهم وجدُوا في ضَواحِي العاصمةِ ما يَرْوِي غَلِيلَهُم إلى القَتْلِ والنَّهْبِ والسَّلْبِ، فهاجَموا الدُّورَ والقُصورَ، وعاثُوا فَساداً في الحُقولِ والبَساتينِ، بل لقد سَطَوْا على الكَنائسِ، وسَرَقُوا الرَّصاصَ مِن سُقُوفِها. وعندئذٍ لم يستطِعِ الإمْبراطورُ صَبْراً عليهم، فَأَمَرَ بنَقْلِهِم سَريعاً إلى الساحلِ الشَّرْقِيِّ لِلْبُوسْفُورِ. ولكنَّ جرائمَهُمْ هُنا فاقَتْ كُلَّ ما ارتكبُوهُ مِنْ قَبْلُ، إذْ أغارُوا على القُرى والمَزارِعِ، فنهبُوها واسْتاقُوا ما وَجَدُوهُ فيها مِنَ

الماشِيَةِ والأغْنامِ، وقتلُوا سُكَّانَها المَسيحيّينَ في وَحْشِيةٍ بَشِعَةٍ، وذَبَحُوا الأطفالَ، ثم رَفَعُوهُم على السَّفافِيدِ يَشْوُونَهُم كما تُشْوى الفَرارِيجُ.

هذا نَموذجٌ لما فَعَلَهُ جيشُ المسيحِ بالمسيحيّينَ أَنْفِسِهم. تُرى ماذا سَيَفْعَلُ حِينَ يدخلُ ديارَ الإِسْلامِ؟ أليسَ مِنَ العَدْلِ والإِنسانيةِ القَضاءُ على هذا الجَيْشِ المُجْرِمِ، وتخليصُ البشريَّةِ من آثامِهِ وبَرْبَرِيَّتِهِ؟

نَعَمْ إنَّ ذلكَ لَهُوَ الحُكْمُ العادِلُ، ولقد تَمَّ تنفيذُهُ على يَدِ جَيْشٍ مُسْلِمٍ. إِذْ ما كادَ الصَّلِيبيُّونَ يَتَوَغَّلُونَ في الأراضي السُّلْجُوقِيَّةِ، حتى أَرسلَ إليهم السُّلطانُ قَلْج أَرْسلانُ أَحَدَ كِبارِ قُوّادِهِ على رَأسِ جَيْشٍ كَثِيفٍ، والْتَقى الجَيْشانِ عِنْدَ قَرْيَةٍ اسْمُها دَراكُونْ. وكانتْ مَذْبَحَةٌ هائلةٌ قُتِلَ فيها من

الصَّليبيينَ نحوُ عِشرينَ ألفَ رجلٍ. ولم يُفْلِتْ مِنهم إلاّ عَدَدٌ قليلٌ هَرَبُوا إلى الغاباتِ، أَو إلى الساحلِ حَيْثُ جاءَتْ سُفُنٌ بيزَنْطِيَّةٌ، فنقلَتْهم إلى القسطنطينيةِ حيثُ جرى إنزالُهُم بالضَّواحِي بعدَ نَزْعِ الأسْلِحَةِ مِنْهِم.

كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّ بُطْرُسَ صاحبِ هذا الجيشِ الهَمَجِيِّ، أَنَّه كانَ غائباً عَنِ المَعْرَكَةِ يُجْرِي مُحادثاتٍ مَعَ إمبراطورِ القسطنطينيةِ. ولَوْلا ذلكَ لكانَ مِنَ المَأمُولِ أَنْ يكونَ مَصِيرُهُ كَمَصِيرِ جيشِهِ، فيَرْتاحَ الناسُ، مُسلمينَ ومَسيحيين، مِن سُمومِهِ وَوَسْوَسَاتِهِ الشَّيْطانِيَّةِ.

الحملة الألمانية

لم تَتَوَقَّفِ الحَماسةُ الصليبيةُ بألمانيةَ برحيلِ بُطرسَ الناسِكِ إلى الشرقِ، إذْ خَلَّفَ وراءَهُ تلميذَهُ

غُوتْشالْك لِيَحْشُدَ جيشاً آخرَ. كما ظَهَرَ رجلٌ مجهولُ الأصْلِ اسْمُهُ فُوْلكْمارُ، حشدَ جيشاً خاصّاً بِهِ عِدَّتُهُ عَشَرَةُ آلافٍ. كما احتشدَ جيشٌ ثالثٌ تحتَ قِيادةِ إقطاعيٍّ اسمُهُ أَميخُ كونتُ لايْزِنْجِنْ نالَ شُهرةً واسعةً في اللُّصُوصِيَّةِ والخُروجِ على القانونِ.

فأمّا السيِّدُ أميخُ هذا فسارَ على سُنَّةِ بُطرسَ في استغلالِ الحَماسةِ الدينيةِ لتحقيقِ مآربِهِ الشَّخْصِيَّةِ، فزعَمَ لأتباعِهِ أنَّ نُصْرَةَ السيدِ المسيحِ يَجِبُ أَنْ تبدأَ بِقَتْلِ اليَهودِ في ألمانيةَ، وأرسلَ لذلكَ قِسْماً من جَيْشِهِ، فطافوا البِلادَ والقُرى الألمانيَّةَ، وقتلُوا مَنْ وَجَدُوهُ بِها من اليَهودِ، وسَلَبُوا أَمْوالَهمُ، فلمّا وَجَدُوا أَيْدِيَهُم قَدِ امتَلأَتْ بالأموالِ، نَسُوا الغايةَ التي تَجَمَّعُوا مِن أَجْلِها، ورجعَ كلٌّ إلى بلدِهِ فَرِحاً بما فازَ بِهِ. واضْطُرَّ السِّيدُ أميخُ أنْ يَسيرَ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِن

الجُنودِ. فلمّا بَلَغَ حدودَ المَجَرِ، طلبَ الإِذْنَ بالمُرورِ، فرفضَ المَلِكُ المَجَرِيُّ، وانقضَّ بعساكِرِهِ عليه وعلى جُنودِهِ، فَأَفناهُم عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِم. ولم يَنْجُ السيِّدُ أميخُ مِنَ الموتِ إلاّ بِفَضْلِ سُرْعَةِ جَوادِهِ في الهَرَب. وعادَ إلى ألمانيةَ.

وأَمّا فُولْكْمارُ فقد أَخَذَ على عاتِقِهِ أن يقتلَ مِنَ اليهودِ مَنْ يَلْقاهُم في طريقِهِ إلى القسطنطينيةِ. ولكنَّه حينَ دخلَ المَجَرَ، رفضَ المجريّونَ أنْ يسمحُوا له بذلكَ في بِلادِهِم، فهاجَمُوا جيشَهُ، وقتلُوا أكثرَ أَفرادِهِ. أما الناجُونَ، ومَعَهُم فولكمارُ، فتفرَّقُوا بالبِلادِ، ولم يَعُدْ يَسْمَعُ بِهِم أَحَدٌ.

وأما غُوتْشالْكُ تلميذُ بُطرسَ، فقد سارَ على سُنَّةِ فولكمارَ، فزاح يَقتلُ و يسلبُ مَن يلقاهُم في طريقِهِ من اليهودِ، فلما دخلَ جنودُهُ المَجَرَ نهبُوا القَمْحَ

والنبيذَ والأَغْنَامَ والأَبْقارَ، فطوَّقهم المجريون بقُوّاتِهم، وأَعْمَلُوا فِيهم السُّيوفَ، حتى أَتَوْا عَلَيْهم جَميعاً. أمّا قائِدهُمُ الصليبيُّ المؤمنُ، ففرَّ مِن المعركةِ يَطلُب النجاةَ. ولكنّه ما لَبِثَ أن وَقَعَ أسيراً.

وهكذا انتهتْ هذهِ الحملةُ الألمانيةُ المقدسةُ. ولكنَّ نِهايَتَها تَمَّتْ على يَدِ شَعْبٍ مسيحيٍّ هذهِ المَرَّةَ.

حملة الأمراء

وفي خلالِ ذلكَ كانَ أمراءُ فِرَنْسَةَ وألمانيةَ وإيطاليةَ يُجهّزونَ جُيوشَهُم للمسيرِ نحوَ الأراضي المُقَدَّسَةِ. ولما حانَ الوقتُ الذي حَدَّدَهُ البابا للمسيرِ خَرَجُوا من بِلادِهِم مُيَمِّمِينَ وُجُوهَهُم شَطْرَ القُسْطَنْطينيةِ التي حَدَّدَها البابا مركزاً لِتَجمُّعِ الجُيوشِ.

١ ــ فكانَ أَوَّلَ مَنْ سارَ «هُيُو» كونتُ فِرْماندوَا، وهو الابْنُ الأَصْغَرُ لِهَنْري الأَوَّلِ مَلِكِ فرنسةَ. وفي أَثْناءِ مَسِيرِهِ نحو الجُنوبِ انضمَّ إليهِ «دْرُوجي» صاحبُ «نِسْلَ»، و«كلارِمْبالدُ» صاحبُ «فَنْدايَ» وَولْيَمُ النَّجّارُ، وبَقِيَّةُ الفُرسانِ الفِرَنسيِّينَ الذينَ عادُوا أخيراً من حَمْلَةِ «أَميخَ» بعدَ أَنْ حَلَّتْ بِها الهزائِمُ والكَوارِثُ.

٢ ــ وتَبعَهُ غَوذْفِري كُونتُ اللُّورينِ مِن غَرْبيِّ أَلمانيةَ ومعَهُ أَخَواهُ يُوسْتاسُ كونتُ بولونيةَ، وبَلْدَوِينُ، وعددٌ كبيرٌ مِن أَعلامِ الفُرسانِ مِن بلادِ الوَالونِ ولوثِرَنْجِيا.

٣ ــ ثُمَّ تَبعَهُما بُوهِمُنْدُ النورَمَنْدِيُّ مِن جُنوبِ إيطاليةَ، بعدَ أَن انْضَمَّ إلى جيشِهِ أَعدادٌ كبيرةٌ مِن جيشِ أَخيهِ، وجَيْشِ عَمِّهِ رُوجرَ صاحبِ صِقِلِّيَّةَ

الذي راحَ يَجْأَرُ بالشكْوى مِن أَنَّ الحركَةَ الصليبيةَ سَلَبَتْهُ جَيْشَهُ.

٤ ــ ثم لَحِقَ بِهِم رَيْمُونْدُ كُونتُ تُولُوزَ مِن جُنوبِ فرنسةَ، وقد ضَمَّ جيشُهُ عدداً كبيراً مِن نُبلاءِ جُنوبِ فرنسةَ. كما صَحِبَهُ مندوبُ البابا أَدهِيْمَرُ دي مُونْتيِلَ الذي سَبَقَ تَعْيينُهُ قائِداً رُوحياً عاماً للحملةِ الصليبيةِ.

٥ ــ وأخيراً تَحَرَّكَ الجيشُ الخاصُ من شِمالِ فِرنسةَ تحتَ قِيادةِ رُوبرْتَ النورْمَنْدِيِّ دُوقِ نُورمَنْدِيا، ومَعَهُ صِهْرُهُ سْتيِفِنُ كُونتُ بِلَوا، وابنُ عَمِّهِ رَوبرْتُ الثاني كونتُ فْلانْدِرَ، وعددٌ كبيرٌ مِن نُبلاءِ فِرَنسة وانكلترا واسكتلندةَ وبْرِيتانِي.

والحقُّ أَنَّ هذهِ الجيوشَ الخَمْسَةَ لم يَبْدُرْ مِنها مثلُ

مابَدَرَ مِن جُنودِ بُطْرُسَ والحملةِ الألمانيَّةِ. ولكنَّ ذلكَ لا يَعودُ إلى حُسْنِ أخلاقِها وتَهْذِيبِها، بل يعودُ إلى شِدَّةِ حَذَرِ البيزنْطيّينَ والمَجَرِيِّينَ بعدَ ما رَأَوْهُ مِن سُلوكِ الصَّليبيّينَ السَّابِقِينَ، فكانُوا كُلَّما دخلَ أَحُد الجيوشِ حُدودَهُم أرسَلُوا قُواتٍ مِن جُيوشِهِم تُرافِقُهُ في سَيْرِهِ، وتَفْرِضُ عليه مُراقبةً شَديدةً، لمنعِهِ مِن كلِّ عملٍ من أعمالِ الشَغَبِ. ومعَ ذلك لم يَخْلُ الأمْرُ من بعضِ الحوادثِ المُتَفَرِّقَةِ. من ذلكَ ما حدثَ مِن جيشِ غُودْفِري الذي ما كادَ يبلغُ شَواطِىءَ بَحْرِ مَرْمَرَةَ حتى انهارَ نِظامُهُ فُجاءةً، وراحَ يَعِيثُ فَساداً في القُرى مُدَّةَ ثمانيةِ أيامٍ مُتَواصِلَةٍ. وعندَما احتَجَّ الإمبراطورُ على هذهِ الأعمالِ البربريةِ، لم يكنْ جوابُ غُودفِري إلا هجوماً شَنَّهُ على أسوارِ القُسْطنطينيةِ نَفْسِها، بعدَ أنْ نهبَ المساكِنَ في

الضواحِي وأَشْعلَ فيها النِيرانَ، وعندئذٍ لم يَسَعِ الإمبراطورَ إلاّ أَنْ يَأمُرَ جيشَهُ بتأديبِ هؤلاءِ الهَمَجِ، فانقضَّ جُنودُ الإمبراطورِ على غودفِري ورِجالِهِ، وأَعْمَلُوا فِيهِمُ السيوفَ، فلم يَمْضِ إلاّ قليلٌ حتى وَلَّوْا الأَدْبارَ منْهَزِمينَ. وعادَ غودفِري مَخذولاً يُعْلِنُ تَوْبَتَهُ وَوَلاَءَهُ للإمبراطورِ.

بعدَ اجتماعِ الجيوشِ الصليبيةِ في ظاهرِ القسطنطينيةِ، دَعا الإمبراطورُ رُؤساءَهَا وقُوّادَها إلى قصرِهِ، وأَغْدَقَ عَلَيْهِمُ العَطايا والهِباتِ، وأخذَ منهم يَمينَ الوَلاءِ لَهُ، وَوَعْداً بأَنْ يَرُدُّوا لهُ المُدُنَ والأراضِيَ التي سيفتحونَها، والتي كانَتْ في حَوْزَةِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ قبلَ أَنْ يَسْتولِيَ عَليها المُسْلِمُونَ.

سقوط نيقية

مَدينةُ نِيقِيَةَ هي إحدى أَهَمِّ مُدُنِ آسِيَةَ الصُّغرى. ولها عندَ المسيحيّينَ مكانةٌ خاصةٌ، لأنّها احْتَضَنَتْ أَوّلَ مَجْمَعٍ كَنَسِيٍّ في تاريخِ المَسيحيّةِ. وتقعُ على بُعْدِ نَحْوِ مِائَةِ مِيلٍ إلى الجُنوبِ الشَّرقيِّ من القُسْطنطينيةِ. وبسبب مناعةِ أَسوارِهَا وحَصانةِ مَوْقِعِهَا اتّخَذَها السُّلطانُ قَلج أَرسَلانُ عاصمةً لَهُ. ولكنَّ أسوارهَا لم تُغْنِ عنها شيئاً أمامَ جُيوشِ الصَّليبيّينَ الجَرّارَةِ.

في ٢٦ نيسانِ عامِ ١٠٩٧م عبرَ البوسفورَ إلى البَرِّ الأسْيَوِيِّ ١٠٠ ألفِ صليبيٍّ بكاملِ عَتادِهِمْ وأَسْلِحَتِهِمْ، وعَبَرَ معهم جيشٌ بيزنطيٌّ قويٌّ يَضُمُّ عدداً من المُهَنْدِسِينَ الخُبَراءِ بِحَرْبِ الحِصارِ مَعَ

آلاتِهِمْ وأَدَواتِهِمْ. ورافقَ الجميعَ اسْطولٌ بيزنطيٌّ كانَ يَسِيرُ بإزاءِ شَواطِىء آسِيَةَ الصُّغرى المُطِلَّةِ على بَحْرِ مَرْمَرَةَ، واتَّجَهَ الجميعُ إلى مدينةِ نِيقيةَ التي كانَ السلطانُ غائباً عَنْها لاشْتغالِهِ بحروبٍ في الشرقِ ضدَّ أتراكِ الدانِشْمَنْدِ.

لم يَكُنِ السلطانُ قلج أرسلانُ جاهِلاً بأَمرِ تَحَشُّداتِ الصليبيّينَ على البرِّ الأوروبيِّ، إذْ كانَ جَواسِيسُهُ يُراقِبونَ هذهِ التحشُّداتِ بعينٍ يَقْظى، ويُوافونَهُ بأخبارِها أَوّلاً بأَوّلٍ. ولكنَّ انتصارَهُ السَّهْلَ على جيشِ بُطْرُسَ جعلَهُ يَسْتَهينُ بأمرِ الصليبيّينَ، كما أَنَّ تقاريرَ جَواسِيسِهِ بالغَتْ في ذِكْرِ الخِلافاتِ الناشِبَةِ بينَ الصليبيينَ والإمبراطورِ. كلُّ ذلكَ حَمَلَهُ على التَّلَكُّؤِ في الشرقِ أكثرَ مما يَنْبَغِي. وعندما عَلِمَ بنزولِ الصليبيينَ على البرِّ الأسيويِّ، ارتدَّ إلى

عاصمتِهِ لِحمايَتِها، ولكنَّ الأوانَ كانَ قد فاتَ. في السادِسِ من شهرِ أيّارَ وصلتِ الجيوشُ الصليبية إلى نِيقِيَةَ، فأحاطتْ بها إحاطةَ السِّوارِ بالمِعْصَمِ، وضربَتْ حولَها حِصاراً مُحْكَماً.

ولم يَصِلِ السُّلطانُ إلاّ في الحادِيْ والعِشْرينَ مِن الشهرِ. فبادرَ بِمُهاجمةِ الصليبيّينَ مُحاوِلاً أن يَشُقَّ لِنَفْسِهِ طريقاً إلى المدينةِ المُحاصَرَةِ. واستمرَّتِ المعركةُ يوماً كاملاً، ووقعتْ في الجيوشِ الصليبيةِ خسائرُ فادحةٌ في الأرواحِ. ولكنَّ كَثْرَتَها الهائلةَ لم تَتَأَثَّرْ بهذِهِ الخسائرِ، فاضْطُرَّ السلطانُ إلى الإنْسحابِ تارِكاً لِحاميَةِ المدينةِ أن تتصرَّفَ بما يُناسِبُ وَضْعَها. فَبَقِيَتِ الحاميةُ صامِدَةً إلى ١٨ حَزيرانَ، ثم لم تَجِدْ بُدّاً مِنَ التَّسليمِ، فسلَّمَتِ المدينةَ للإمبراطورِ، وانسحبَتْ مِنها ليلاً.

وفي صَبيحةِ يوم ١٩ حَزيرانَ رأى الصليبيونَ أعلامَ الامبراطور تُرَفْرِفُ فَوْقَ أَسْوارِ نِيقيةَ، فشعرُوا أَنَّهم خُدِعُوا، وأَنَّهم حُرِمُوا مِن فُرْصَةِ نَهْبِ المدينةِ التي كانُوا يَطْمعونَ في ثَرَوَاتِها. ولكنَّ الامبراطورَ أَرْضاهُم بما أَغْدَقَ عليهِمْ مِن كَمِّيَاتِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ التي استَوْلى عليها مِن خَزَائِنِ السُّلْطانِ.

انتصار آخر للصليبين

بعدَ أسبوعٍ مِن سقوطِ نيقيةَ أَخذتْ مقدِّمَةُ الجيشِ الصليبيِّ في التَّحَرُّكِ، وأَعْقَبَها في اليومَيْنِ التاليَيْنِ سائِرُ أَقسامِ الجيشِ. ثمَّ عادَتْ فاجتمعَتْ مرةً ثانيةً عندَ مَجْرى أَحَدِ الأَنْهارِ الذي اعتَرَضَ طَريقَهُم.

عقَدَ أمراءُ الجيوشِ الصليبيةِ مجلسَ شُورَى، تَقَرَّرَ على أَثَرِهِ تَقْسِيمُ القُوَّاتِ كُلِّها إلى جَيْشَيْنِ، وذلكَ

لِحَلِّ مُشكِلَةِ المؤونَةِ، فيَسْبقُ أَحَدُ الجيشَيْنِ الجيشَ الآخَرَ، و يَفْصِلُ بيْنهما يومٌ واحدٌ. وهكذا مَضى الجيشُ الأولُ نحو دُورِيلْيُومَ، ولَحِقَ بِهِ الجيشُ الثاني بعدَ يَوْمٍ مِن مَسيرِهِ.

وفي خلالِ ذلكَ كانَ السلطانُ قلج أرسلانُ قد أعادَ تنظيمَ قُوّاتِهِ، ودَعَّمَها بقُوات ٍجديدةٍ أتى بِها من الشَّرقِ، ثم راحَ يَتَحَيَّنُ الفُرْصَةَ المُناسِبةَ لِلانْقضاضِ على الجيوشِ الصليبيةِ. وما كادَ يعلمُ بنزولِهِم في سهلِ دُوريليومَ حتى تَوَجَّهَ نحوَهُم ظاناً أن النازِلين هم كلُّ الجيوشِ الصَّليبيةِ. وكان هذا هو خَطأَهُ الثاني الذي منحَ الصليبيّينَ نصراً آخرَ لم يكونوا أهلاً لَهُ. إذ ما كادَ يُطوِّقُهم، و يَشُنُّ فُرسانُهُ الرُّماةُ الغاراتِ الصاعقةَ عَليهِم، وما كادتْ صفوفُ الصليبيّينَ تبدأ بالتَّزَعْزُعِ والاضْطرابِ، حتى ظهرَ الجيشُ الصليبيُّ الثاني من خلفِ خطوطِ الأتراكِ.

فوجِىء الأتراكُ بهذا الجيشِ الذي لم يكونوا يعلمون عنهُ شيئاً، فاضْطَرَبَتْ صفوفُهم، ولاذوا بالفِرارِ. وعندما وصلتْ متأخرةً القواتُ التركيةُ القادمةُ من سوريةَ لنجدةِ قلج أرسلانَ، أَقْنَعَها السلطانُ بالعَوْدةِ، لأن الجيوشَ الصليبيةَ تَتَفَوَّقُ على الأتراكِ في العددِ تَفَوُّقاً هائلاً.

الرها أول إمارة لاتينية

بعدَ أنْ تَمَّ النصرُ للصليبيّينَ في معركةِ دُوريليومَ مَضَتْ جُيوشُهُم تتقدمُ نحوَ أَنْطاكِيَّةَ في كلِّ يُسْرٍ وسُهولةٍ، وراحَتِ القواتُ البيزنطيةُ تتقدمُ خلفَهُم، فتَسْتولي على المُدُنِ والحُصونِ وتضعُ فيها حامياتِها، وترفعُ عليها أعلامَها. ولم يَمْضِ على سُقوطِ نيقيةَ إلاّ أربعةُ أشهرٍ حتى كانَ الجانبُ الغربيُّ والجنوبيُّ من

آسيةَ الصُّغرى قد عادَ برُمَّتِهِ إلى السيادةِ البيزنطيةِ، وحتى غدا الصليبيّونَ يَسْرَحونَ و يَمْرَحونَ في شِمالِ سُوريةَ لا يَرْدَعُهُم أَحَدٌ. فَاسْتَوْلَوْا على سَمِيساطَ ومَعَارَةَ وتلَّ بَاشر ومَرْعَشَ، ولم يَبْقَ بينَهُم و بينَ حَلَبَ سِوى كيلو مترات ٍقليلةٍ.

كانَ هذا النجاحُ السريعُ أمراً طبيعياً إذا قارَنّا بينَ ما كانَ يَجْرِي في الطَّرَفَيْنِ، فَفِي حينَ كانَ الصليبيّونَ والبيزنطيّونَ على أحسنِ ما يَنْبَغِي من التَّفاهُمِ والتعاوُنِ، وفي حينَ أَنَّهم كانوا يتلقَّوْنَ من الأَرْمَنِ مِن سُكّانِ المِنطقةِ المَعُونَةَ والتَّأييدَ، كانَ الأمراءُ المسلمونَ مُختلفِينَ مُتنابِذينَ، يُقاتِلُ بعضُهم بعضاً، قد قَبَعَ كلٌّ منهم في مدينتِهِ لا يَبْرَحُها، وكلُّ مُناه ألاّ يكونَ هدفاً لهؤلاءِ الغزاةِ. ولم يُفَكِّرْ أَحَدُهُمُ مِمَّن كانَ الخطرُ الصليبيُّ يَدْنُو مِنْه، أَنْ يَسْتَنْجِدَ

بإخوانِهِ البَعيدينَ عن الخَطَرِ، لأنَّه كانَ يخشى على نفسِهِ من هذا الأخِ أكثرَ مِن خَشْيَتِهِ مِن الصليبيينَ.

وزادَ مِن سُوءِ الوَضْعِ وتَدَهْوُرِهِ موقفُ الأرمنِ الذينَ كانَ لهم في حوضِ الفُراتِ الأوْسَطِ وجبالِ طوروسَ وقِيليقِيَةَ كثافةٌ سُكانيةٌ محسوسةٌ. فلم يَكْتَفِ هؤلاءِ بتقديمِ المُؤنِ للصَّليبيّينَ وإرشادِ جُيوشِهِم في طُرُقِ المِنطقةِ والقِيامِ بأعمالِ التَّجَسُّسِ لِحسابِهِم، بل راحُوا يفتَحُونَ المُدُنَ التي لَهُم فيها أكثرياتٌ سُكّانِيَّةٌ، ويستقبلونَ الصليبيينَ فيها استقبالَ الفاتِحِينَ المُنْقِذِينَ.

فقد كانُوا يَظُنّونَ أَنَّ الصليبيينَ ما جاؤوا إلاّ لإنقاذِهِم مِنَ الأتراكِ. فالمعروفُ أَنَّهُ قَبْلَ عِشرينَ سنةً ذهبَ إلى رُوما أسْقُفٌّ أرمنيٌّ، وتباحثَ مَعَ البابا غِريغوري السابعِ بِشَأنِ تَوْجيهِ

حَمْلَةٍ إلى الشَّرقِ لإنقاذِ العالمِ المسيحيِّ. ولم تنكشفْ أَطماعُ الصليبيينَ الحقيقيةُ إلاّ بعدَ استيلائِهِم على الرُّهَا، وإِقامةِ أَوَّلِ إِمارةٍ لاتينيةٍ لَهُم فيها.

وخلاصةُ القصةِ أن مدينةَ الرُّهَا كانتْ في يَدِ أَميرٍ أرمنيٍّ اسْمُهُ تُورُوسُ. فلما وصلَ الصليبيونَ إلى عِينتابَ، بعثَ تُوروسُ إلى أَحدِ أمرائِهم المَدْعُوِّ بَلْدوينَ يُغْريهِ بالمجيءِ إلى الرُّهَا مع قوتِهِ للإِقامةِ بها. ولمّا لم تكُنْ مدينةُ الرُّها واردةً في المَشْروعِ الصَّليبيِّ، فإِنَّ بَلْدوينَ تَباطَأَ بعضَ الوقتِ، ولكنَّ تُوروسَ استعْجَلَهُ مُطْمِعاً إياه بأنَّه سوف يَتَبنّاه، وسوف يجعلُهُ وريثَهُ. وعندئذٍ أَسْرَعَ بلدوينُ بقواتِهِ إلى الرها. وَوَفى ثوروسُ بِوَعْدِهِ، فأَعْلَنَ تَبَنِّيَهُ

لبلدوينَ في حفلةٍ رسميةٍ خاصةٍ، وهو لا يعلمُ بحقيقةِ ما يُضْمِرُهُ له هذا الابْنُ الصليبيُّ.

جَرى كلُّ ذلكَ في ٦ شباطِ سنةِ ١٠٩٨. وفي ٧ آذارَ، أي بعدَ شهرٍ واحدٍ فقط، دَبَّرَ الابنُ الصليبيُّ بلدوينُ، لأبيهِ الأرمنيِّ ثُوروسَ، مؤامرةً انْتهتْ بقتلِهِ، وإعلانِ نفسِهِ أميراً على الرها. أما أمُّهُ بالتَّبَنّي، أي زوجةُ الأميرِ الأرمني المقتولِ، فلم يُعْرَفْ ما حدثَ لَها. والمُرَجَّحُ أنها لَقِيَتْ على يَدِ ابنِها الصليبيِّ المصيرَ نفسَهُ الذي لَقِيَهُ زوجُها.

سقوط أنطاكية

تقعُ مدينةُ أَنطاكيَّةَ على نهرِ العَاصِي، على مسافةِ ١٢ ميلاً من البحرِ المتوسطِ. أنشأَها سنةَ ٣٠٠ قبلَ الميلادِ، سُلوقُسُ الأولُ مَلِكُ سوريةَ، وأطلقَ عليها

اسمَ أَبيهِ «أَنْطِيُوخُسْ»، ولم تلْبَثْ أن صارَتْ أَهَمَّ مدينةٍ في آسِيَةَ. وفي زَمَنِ الرومانِ كانتْ تُعَدُّ ثالِثَةَ مُدُنِ العالَمِ. واشتهَرَتْ عندَ المسيحيّينَ بما لَها مِن قَداسةٍ خاصةٍ، لأنّهم بِها اتَّخذُوا اسمَ «المسيحيّينَ» أَوّلَ مَرَّةٍ، ولأنَّ القديسَ بطرسَ الرسولَ أَقامَ بِها أولَ أسقفيَّةٍ له.

تداولَتْ حُكْمَ أنطاكيةَ دولٌ كثيرةٌ. وفي سنةِ ١٠٨٥م اسْتَوْلى عليها سُلَيْمانُ بنُ قَتَلْمِش. فلما ماتَ، انتقلتْ إلى حَوْزَةِ السلطانِ السلجوقيِّ مَلِكْ شَاه، فَعَيَّنَ ياغِي سيانَ التركُمانِيَّ حاكِماً عَلَيْها، فلما ماتَ مَلِكْ شاه بعدَ عَشْرِ سنواتٍ، صارَ ياغي سيانُ تابعاً لِرضوانَ أميرِ حلبَ تبعيَّةً اسميَّةً. ولكنّه سَعَى دائماً إلى الاستقلالِ الكاملِ عَنْهُ، بل راحَ يُحرِّضُ عليهِ مُنافِسيهِ، دُقاقَ أميرَ دِمشقَ، وكَرْبُقا

أميرَ المَوْصِلِ، ويساعِدُهُما على الاسْتِيلاءِ على حلبَ.

في هذا الجوِّ مِن التنافرِ والتآمُرِ المُثِيرَيْنِ لِلاشمِئْزازِ، وصلَ الصليبيونَ إلى أنطاكيةَ، وضربُوا عليها الحِصارَ من جميعِ الجِهاتِ. وعندئذٍ فقط، وبعدَ أَنْ فاتَ الأوانُ، راحَ السيِّد ياغي سيانُ يَلْتَمِسُ المساعدةَ مِن إخوانِهِ المسلِمينَ. فأقبلَ هؤلاءِ فُرادى، لا يَجْمعُهُم قائدٌ، ولا تُوحِّدهُم غايةٌ، فكانَ مصيرُ الجميعِ الإخفاقَ الذَّرِيعَ، والانكسارَ المُرِيعَ.

كان أَوَّلُ المتحركينَ دُقاقَ أَميرَ دمشقَ. ولكنَّهُ ما كادَ يبلغُ شَيْزَرَ حتى اصْطَدَمَ بجيشٍ للصليبيينَ جاءَ إلى المِنطقةِ لجمعِ المُؤنِ، وكانتْ معركةٌ قصيرةٌ انكسرَ فيها دُقاقُ، وارتَدَّ إلى دمشقَ قانِعاً من الغنيمةِ بالإيابِ. ثم تَحَرَّكَ أَخُوه رِضوانُ أَميرُ حلبَ،

ولكنْ بعدَ أنْ أعلنَ له ياغي سيانُ التَّوْبَةَ، والعودةَ إلى خضوعِهِ لَهُ، غَيْرَ أنَّ مصيرَ رضوانَ لم يختلِفْ عَنْ مصيرِ أخِيه دُقاقَ. إذْ ما كادَ يَصِلُ إلى مُعَسْكرِ الصليبيينَ حتى وَقَعَ في كَمِينٍ نَصَبُوه لَهُ، فانكسر جيشُهُ، وعادَ إلى حلبَ مُؤثِراً السَّلامَةَ.

أمَّا كَرْبُقا أميرُ المَوْصِلِ فلم يتحرَّكْ إلاّ بعدَ وقتٍ طويلٍ كانَ الصليبيونَ خِلالَهُ قد تَمَكَّنُوا مِنَ الاتِّصالِ بِأَحدِ الخَوَنَةِ الأرْمَنِ، واتَّفقُوا مَعَهُ على تسليمِ المدينةِ. ومَعَ ذلك فقد كانَ بإمكانِهِ الوصولُ قبلَ وُقوعِ الخِيانَةِ، ولكنَّهُ أضاعَ وقتاً ذَهَبِيّاً في حصارٍ لا جَدْوى منه ضَرَبَهُ على مدينةِ الرُّها مُدَّةَ ثَلاثةِ أَسابيعَ. وعندما اقتنعَ بِعَدَمِ جَدْوى حِصارِهِ هذا، وتحرَّكَ نحوَ أنطاكيةَ لانقاذِهَا، كانَ قد قضِيَ الأمْرُ، وانتهى كلُّ شيءٍ.

ففي يوم ٢ حزيران أرسل فيروز، وهو أرمني اعتنق الإسلام ظاهراً، فاستخدمه ياغي سيان في وظيفة كبيرة في حكومته، أرسل ابنه إلى الصليبيين يخبرهم أنه وافق على بيع المدينة لهم، وأنه سيفتح لهم أبوابها في الليل.

وتمت المؤامرة، ودخلت الجيوش الصليبية مدينة انطاكية، فعاثت فيها فساداً، وقتلت أهلها، ونهبت مساكنها، لم تميز بشرورها بين مسلم ومسيحي، حتى إن الماشي في الشوارع لم يكن يستطيع تحاشي الجثث المكدسة فيها.

أما ياغي سيان فقد لقي المصير الذي يستحقه، ذلك أنه سقط عن جواده وهو في درب بالجبال أثناء فراره، فتخلى عنه حرسه، ومضوا في فرارهم. و بينما كان يضطجع منهوك القوى، وقد استبد به

الذُّهولُ، عَثَرَ بِهِ بعضُ الأرْمَنِ فَعَرَفُوهُ، فبادَرُوا إلى قَتْلِهِ، وسَلَبُوه ثِيابَهُ، ثم احْتَزُّوا رَأسَهُ، وجَاؤوا بِهِ إلى بُوهِمُنْدَ.

* * *

كانتْ أَنطاكيَّةُ أَمنعَ مدينةٍ في الشامِ على الإطلاقِ. وكانتْ أَسوارُهَا الضخمةُ مَحْمِيَّةً بأَربَعِمائَةِ بُرْجٍ مُتَقارِبَةٍ، بحيثُ يَغْدُو أَيُّ مُهاجِمٍ كان في أَيَّةِ نقطةٍ كانت من السورِ عُرْضَةً لِسِهامِ المُدافعينَ. ولكنَّ التاريخَ أَثْبَتَ دائماً أَنَّ الحصونَ والقِلاعَ، مهما بلغتْ مَنَاعَتُها، ليستْ وَسِيلةً ناجعةً لِحِمايةِ البِلادِ. إِنَّ البلادَ لا يَحْمِيها إلا الصِّدْقُ في العَزْمِ، والإِخلاصُ في النِّيَّةِ، وَوَحْدَةُ الصَّفِّ والكَلِمَةِ.

إِنَّ سقوطَ أنطاكيةَ صفحةٌ شديدةُ السوادِ في

تاريخِ العربِ والمسلمينَ، إنّه صورةٌ لِما يُمْكِنُ أَن يُؤدِّيَ إليهِ الشِّقاقُ والفُرْقَةُ والتَّنابُذُ.

لقد تَهَيَّأَ للمسلمينَ في قَضِيَّةِ أنطاكيةَ أكثرُ من فُرْصَةٍ للقضاءِ على الغُزاةِ، وردِّهِم من حيثُ جاؤوا. ولكنَّهم تخاذَلُوا وتهاوَنُوا، فَحَلَّ بِهِم ما يستحقُّهُ كلُّ متخاذلٍ متهاونٍ.

١ ـــ كانَ بإمكانِهِم أن يجمعُوا قُواهُم، ويتربَّصُوا للغزاةِ في مضائقِ جبالِ الأمانوسِ. ولكنَّهم لم يَفْعَلُوا.

٢ ـــ وكانَ بإمكانِهِم أَنْ يُوَحِّدُوا قُواهم، ويَسيروا في وقتٍ واحدٍ، وبقيادةٍ واحدةٍ، لضربِ الصليبيينَ تحتَ أَسوارِ أنطاكيَّةَ، ولكنَّهم لم يفعلُوا.

٣ ـــ وكانَ بإمكانِهِم أَنْ ينتهِزُوا فرصةَ المجاعةِ

التي حلَّتْ بالصليبيينَ نتيجةَ الحِصارِ الطويلِ، والتي أدَّتْ ببَعْضِ قُواتِهم إلى الهَرَبِ نحوَ الإسْكَنْدَرُونِ، وببعضِها الآخرِ إلى السُّوَيْدِيَّةِ، بل أدَّتْ إلى هربِ بُطْرُسَ الناسكِ نفسِهِ وإعادتِهِ بالقوَّةِ إلى المعسكرِ حِفاظاً على الروحِ المعنويَّةِ. كانَ بإمكانِهم أن ينتهزُوا هذه الفرصةَ لإعادةِ تنظيمِ صفوفِهم، ثم الانقضاضِ على الصليبيينَ وهم في أشدِّ حالاتِهم ضعفاً. ولكنَّهم أيضاً لم يفعلُوا!

إنَّ مَنْ يقرأ تاريخَ هذه الفترةِ، ويتتبعُ تصرفاتِ كلِّ أميرٍ أو مَلِكٍ من أمراءِ ومُلوكِ المسلمينَ في المِنْطقةِ، يُخَيَّلُ إليهِ أنَّ الجميعَ كانوا كأنَّهم أعوانٌ للصليبيّينَ لا أعداءٌ لهم، لأنَّهم كانوا لا يفعلُون إلاَّ ما يُفيدُ العدوَّ ويَزِيدُهُ قُوَّةً.

إنَّ مأساةَ سقوطِ أنطاكيةَ لا يكادُ يُشبهُها في

التاريخِ العربيِّ والإسلاميِّ سوى مأساةِ سقوطِ فِلسْطِينَ في أيدي الصَّهَايِنَةِ. ففي كِلْتا الحالَتْينِ وقفَ ملوكُنا وأمراؤُنا يتفرَّجُون على المأساةِ التي تَتوالى فُصولُها أَمامَهُم، وكأنَّ الأمْرَ لا يَعْنِيهِم.

إنَّ ما ذكرْناهُ من مَاجَرَيَاتِ سقوطِ أنطاكيةَ ليس سوى مُوجزٍ شديدِ الاخْتِصارِ لِقصةِ الفُرْقَةِ والتَّخاذُلِ والخِيانَةِ.

سقوط بيت المقدس

قَضى الصليبيونَ بقيَّةَ عامِ ١٠٩٨ في أنطاكيةَ ينظّمونَ أمورَهُم، ويُحاوِلُون حَلَّ النزاعِ الذي نَشِبَ بينَهم فِيمَن تَؤول إليهِ مُلكيَّةُ المدينةِ. وبعدَ أنْ تَمَّ

الاتّفاقُ على تَنصيب بُوهِمُنْدَ النُورْمَنْديِّ أَميراً عليها، أَخذُوا طريقَهم إلى الجُنوبِ نحوَ بيتِ المقدسِ.

انقسمَ الصليبيونَ أوّلَ الأمْرِ قِسْمَيْنِ، سَلَكَ أَولُهما طريقَ الساحلِ، وأَخذَ الثاني طريقَ وادِي العاصي، ثم التقَى القِسمانِ على الساحلِ شِماليَّ طَرَابُلِسَ، على بعدِ ٣٠ كيلو متراً منها. ومضَى الجميعُ على الساحلِ حتى بلغُوا أَرسوفَ التي لا تبعُدُ كثيراً عن يَافَا. ومنها انعطفُوا نحوَ الداخلِ، فمرُّوا بالرَّمْلَةِ، وحطُّوا رِحالَهُم أخيراً تحتَ أَسوارِ بيتِ المقدسِ.

ضربَ الصليبيونَ حِصارَهُم على المدينةِ المقدسةِ منذُ يوم وصولِهِم، أيْ ٧ حزيران ١٠٩٩م. وفي يوم ١٤ تموز، أيْ بعدَ خمسةِ أَسابيعَ تمكّنوا مِنِ اقْتحامِ

الأسوارِ، والاستيلاء على المدينةِ، فبلغُوا الهدفَ الذي خَرَجُوا من أَجلِهِ مِن أَقاصِي أوروبةَ.

المذبحة

كانَ في بيتِ المقدسِ ما يَزيدُ على ٧٠ ألفاً من المُسْلمينَ، وعددٌ ليسَ معروفاً بالضَّبْطِ من اليهودِ، لم يبقَ من الجميعِ على قَيْدِ الحياةِ سِوى حاكمِ المدينةِ الفاطميِّ افتخارِ الدَّوْلَةِ وَحرسِهِ الخاصِّ، لأنَّه افْتدى نفسَهُ وحَرَسَهُ بالمالِ قبلَ أن يُسَلِّمَ آخرُ بُرجٍ مِن أبراجِ المقاومةِ، وانطلقَ وحرسُهُ، فالْتحقُوا بحاميةِ عَسْقَلانَ. أما الباقونَ فراحُوا ضَحِيَّةَ خِذْلاَنِ المسلمينَ ومُؤامراتِهم وخِلافاتِهم. إذْ إنَّ الصليبيينَ، وقد زادَ في جُنونِهم ما أَحرزُوه من نصرٍ كبيرٍ، بعدَ شَقاءٍ وعَناءٍ شَديدَيْنِ أَثناءَ الحِصارِ، انطلقُوا في شوارعِ المدينةِ، وإلى الدورِ والمساجدِ، يَقتلونَ كلَّ مَنْ يَلْقَوْنَهُ

مِن الرجالِ والنساءِ والأطفالِ دونَ تمييزٍ. استمَّرتِ المذبحةُ طَوالَ مساءِ ١٤ تمّوزَ، وطوالَ الليلِ. وفي الصباحِ الباكرِ مِن اليوم التالي، اقتحمَ بابَ المسجدِ الأقصى ثُلّةٌ مِن الصليبيينَ، فأَجْهَزَتْ على كلِّ مَنْ كانَ بهِ مِمَّن الْتَجؤوا إليهِ ظَناً مِنهم أَنَّ حُرْمَتَهُ مانِعَتُهم من وَحْشِيَّةِ الغُزاةِ البَرابرةِ، وعندَما توجَّهَ القائدُ الصليبيُّ في الضُّحى لِزيارةِ ساحةِ المسجدِ، أَخَذَ يَتَلَمَّسُ طريقَهُ بينَ الجُثَثِ وقد بلغتِ الدماءُ رُكْبَتَيْهِ.

وبعدَ أن لم يَبْقَ من المسلمينَ أحدٌ على قَيْدِ الحياةِ، توجَّهَ أمراءُ الحملةِ الصليبيةِ في موكبٍ بالغِ الخُشوعِ، لِيُؤدُّوا صلاةَ الشُّكرِ في كَنيسةِ القِيامةِ.

* * *

إنَّ ما بدرَ مِن أمراءِ المسلمينَ ومُلوكِهم، خِلالَ

مسيرِ الصليبيينَ إلى القدسِ، وأَثناءَ حِصارِها، لأمْرٌ يُثيرُ مِنَ الدهشةِ قَدْرَ ما يثيرُ من الغَضَبِ والاشْمِئْزازِ. فَخِلالَ سبعةِ أَشهرٍ استغرقَتْها الرِّحلةُ الصليبيةُ مِن أنطاكيةَ إلى بيتِ المقدسِ، لم يتحرَّكْ أَحدٌ مِنَ الأمراءِ من مدينتِهِ، وكأَنَّ هؤلاءِ الصليبيينَ جماعةٌ مِن السُّيّاحِ، ولَيْسوا غزاةً جاؤوا لاحتِلالِ البلادِ، وسَفْكِ الدّماءِ، وانْتهاكِ الحُرُماتِ.

قَبَعَ كلُّ أَميرٍ في مدينتِهِ مُؤثراً السلامةَ على تَلْبيَةِ نداءِ الواجبِ، وما عَلِمَ أَنَّ سلامتَهُ هي في الجِهادِ لا في الخِذْلانِ، وأَنّها سلامةٌ مُؤَقَّتَةٌ ستنتهي عندما يحقِّقُ الصليبيونَ أَغراضَهم، و يلتفتونَ إليه، لِيَأكلوه كما أكلوا إخوتَهُ قبلَهُ.

وأَعجبُ مِن موقفِ الخِذْلانِ مَوْقفُ الترحيبِ الذي لَقِيَ به الصليبيينَ بعضُ أمراءِ العَرَبِ

والمسلمينَ. فأميرُ حَماةَ لم يُمانِعْ في أنْ يدخلَ الصليبيونَ مدينتَهُ لِيَشْتَروا منها ما كانوا بحاجةٍ إليهِ من الحَميرِ والبغالِ والخَيْلِ، و بَنو منقذٍ العربُ أمراءُ شَيْزَرَ أَمَدُّوا الجيشَ الصليبيَّ بالمُؤنِ، وأَرسلُوا معَه الأدِلاّءَ يرشدونَهُم إلى الطريقِ. أَمّا بنو عَمّارٍ أمراءُ طرابلس، وهم أيضاً عربٌ مسلمونَ، فإنَّ ما فعلُوه لا يُمكنُ أن يُوصفَ إلاّ بـأنـه الخِيانةُ الحقُّ. إذْ ما كادَ الصليبيونَ يقتربونَ من طرابلسَ، حتى بَادَرَ أَميرُها إلى الْتِماسِ الأمانِ مِنهم لِعاصمتِهِ وضَواحِيها. ولِيُبَرْهِنَ لهم على حُسْنِ نواياهُ أطلقَ لهم سَراحَ ٣٠٠ من الأسرى المسيحيّينَ الذينَ كانوا في سُجونِهِ، ودفَعَ لَهُمْ تعويضاً قَدْرُهُ ١٥ أَلفَ دينارٍ، و ١٥ جواداً مِن أَكْرَمِ الجيادِ العربيةِ، وأَمَدَّ جيشَهم كلَّه بما يلزمُهُ من دوابِّ الحَمْلِ. بَل رَوَوْا عنه أَنَّه

وَعَدَهُم بِاعْتناقِ النَّصْرانيَّةِ إذا هُم أَنْزَلُوا الهزيمةَ بالفاطِميِّينَ الذينَ وصلَ نفوذُهُم إلى حدودِ إمارتِهِ العَرْجاءِ!

هكذا راحَ المسلمونَ يُحَرِّضونَ عدوَّهُم على إخوتِهِم، وهكذا راحَ بعضُهُم يَشْمَتُ ببعضٍ كلّما أَنزلَ العدوُّ ضربةً بأحدِهِم. فلا عَجَبَ بعدَ ذلك أَنْ نرى النَّوْبَةَ تأتي على الجميعِ.

ولعل أَعجبَ ما في الأمرِ مَوْقِفُ الخِلافةِ الفاطميةِ العجوزِ القابعةِ في القاهرةِ. فالمعروفُ أن فِلسطينَ كانت، أَثناءَ إقامةِ الصليبيينَ في أنطاكيةَ، تحتَ حُكْمِ سكمانَ وإيلْغازي ابْنَيْ أرتُقَ، والتابِعَيْنِ اسمياً لدُقاقَ أميرِ دمشقَ. فلما سَمِعَ الفاطميونَ باحْتلالِ الصليبيّينَ لأنطاكيّةَ، رَجَوْا أن يَسْتعينوا بِهِم في نِزاعِهِم معَ السلاجقةِ الأتراكِ، فأرسلَ الوزيرُ

الفاطميُّ، الأفضلُ شاهِنْشاه بنُ الوزيرِ بدرٍ الجَماليّ الأرْمَنِيّ الأصْلِ، أَرسلَ سِفارةً إلى المعسكرِ الصليبيّ في أنطاكيةَ، تَعْرِضُ على الصليبيينَ عَقْدَ حِلْفٍ ضِدَّ الأتراكِ، على أن تكونَ فِلسطينُ للفاطميينَ، ويكونَ شِمالُ بلادِ الشامِ للصليبيينَ. ولكنَّ هؤلاءِ رفضُوا العَرْضَ، وأَفهموا المِصريينَ بصراحةٍ أَنَّهم ما جاؤوا إلاّ لاحْتلالِ فِلسطينَ لِحسابِهِمُ الخاصّ. ولكنَّ وزيَرنا المُبَجَّلَ لم يَفْهَمْ هذا الكلامَ، وأخذَ يُناوِرُ وَيهتَبِلُ الفُرَصَ، على عادةِ أمراءِ المنطقةِ في ذلكَ العَصْرِ. فما كادَ يعلمُ بارتدادِ كَرْبُقا أميرِ الموصلِ عن حِصارِ الصليبيينَ في أنطاكيةَ، وعَدَمِ قدرتِهِ على نجدةِ الأراتِقَةِ في فلسطينَ، حتى ظهرتْ شجاعتُهُ فُجَاءةً، وأرسلَ جيشاً عَرَمْرَماً معهُ أربعونَ مَنْجَنيقاً، فحاصرَ بيتَ المقدسِ، ودَكَّ أسوارَهَا،

واحتلَّها بعدَما طردَ التُّرْكُمانَ منها. ثم التفتَ إلى بَقِيَّةِ فلسطينَ فاحتلَّها. ولم يَحُلَّ خريفُ عامِ ١٠٩٨ حتى مَدَّ حُدودُ الخلافةِ الفاطميةِ إلى نهرِ الكَلْبِ على الساحلِ اللُّبنانيِّ شِمالَ بَيْرُوتَ.

حتّى هنا يبدو الموقفُ المِصريُّ مقبولاً بعضَ الشيء. ولكنَّ غيرَ المقبولِ هو ما بدا من خِذْلانِ المِصْريِّينَ أثناءَ تَقَدُّمِ الصليبيينَ نحوَ بيتِ المقدسِ، ثم أثناءَ حِصارِهِم لها مُدَّةَ خمسةِ أسابيعَ كامِلَةٍ. فَخِلالَ ثمانيةِ شهورٍ كانَ الصليبيونَ يزحفونَ نحو الجُنوبِ، وهم لا يُخْفُونَ أَنَّ هدفَهُم بيتُ المقدسِ. وكانَ على الوزيرِ الفاطمي (البَطَلِ) أن يَتَّخِذَ من الإجراءاتِ ما يَحمِي فلسطينَ التي صارتْ جُزءاً من الخِلافةِ الفاطميـة. ولكنَّه، وبكلِّ خِسَّةٍ وجُبْنٍ ونَذَالَةٍ، ظلَّ قابعاً في القاهرةِ لا يَجْرُؤ على الخروجِ منها.

أينَ أَسطولُهُ الفاطميُّ الرهيبُ لِيمنعَ السُّفُنَ الجَنَوِيَّةَ من إمدادِ الصليبيينَ بالمُؤنِ والعَتَادِ؟ أينَ جيشُهُ العرمرمُ بمجانيقِهِ المُدَمِّرَةِ وفُرْسانِهِ الكُماةِ؟

لم يُرْسِلْ شيئاً مِنْ هذا ولا ذاكَ، وتركَ لِلْحاميةِ الضعيفةِ أن تُجابِهَ وحدَها جُيوشَ الصليبيينَ مُجْتَمِعَةً، وتركَ سبعينَ ألفَ مسلمٍ يُذبَحونَ كما تُذْبَحُ النِّعاجُ.

إنَّ دِماءَ هؤلاءِ الشُّهَداءِ ليست في أَعناقِ قَتَلَتِهم من الصليبيينَ، لأنَّ هؤلاءِ قد كَشَفُوا عن بَرْبَرِيَّتِهم وهَمَجِيَّتِهم منذُ وقتٍ مُبَكِّرٍ، ولكنّها في عُنُقِ الوزيرِ الفاطميِّ المُبَجَّلِ المَلِكِ الأَفْضَلِ شاهِنْشاه، وعُنُقِ دُقاقَ أَميرِ دمشقَ، وعنقِ صِهْرِهِ أَميرِ حَماةَ، وأَعناقِ بني مُنْقِذٍ أُمراءِ شَيْزَرَ، وأَعناقِ بَني عَمّارٍ أمراءِ طرابلسَ، وأَعناقِ كلِّ مَن تَخاذَلَ وتآمرَ وتهاوَنَ.

إنَّ المخازِيَ التي ارتكَبَها مُلوكُنا وأمراؤنا في تلكَ الفَتْرَةِ ستبقى وَصْمَةَ عارٍ في جبينِنا إلى آخرِ الدهرِ.

ماذا بعد سقوط القدس؟

ماذا حدثَ بعدَ أن ذُبِحَ سبعونَ ألفَ مسلمٍ كالخِرافِ؟

ماذا حدثَ بعدَ أَنْ أصبحَ المسجدُ الأقصى أولى القبلَتْينِ إِصْطَبْلاً لِخُيولِ الصليبيينَ؟

ماذا حدثَ بعدَ أَنْ لُوِّثَتِ الصخرةُ ومَسْجِدُها بِرَوْثِ الدَّوابِّ وأَرجاسِ المحتلين؟

هل اهتزَّ ضميرُ العالمِ الإسلاميِّ؟ هل أَيْقَظَتْه الفاجعةُ من سُباتِهِ؟ هل شعرَ بما يُبَيَّتُ له؟ هل نَسِيَ ملوكُهُ وأمراؤه خِلافاتِهِم، ووحَّدوا كلمتَهم لدفعِ الخطرِ الذي يُهدِّدُهم جميعاً؟ هل ترك خليفةُ

بغدادَ تضخيمَ عِمامتِهِ الكاريكاتوريةِ المُضْحِكَةِ لِيُعْلِنَ جِهاداً مُقَدَّساً يَقِفُ بوجهِ الغزوِ الصليبيِّ المقدسِ؟ هل أَفاقَ سَليلُ فاطمةَ الزَّهْراءِ النائمُ في القاهرةِ لِيَثْأَرَ لأرواحِ سبعينَ ألفَ شهيدٍ؟

لم يحدثْ شيءٌ مِنْ هذا على الإطلاقِ. بل ظلَّ الملوكُ والأمراءُ والخلفاءُ على ما كانوا عليه: يكَيدُ بعضُهم لبعضٍ، ويُوقِعُ بعضُهم ببعضٍ. ولم يَجدوا في الغازي الوافِدِ سِوى لاعبٍ جديدٍ يَنْزِلُ إلى مَلْعَبِ الشرقِ الأوْسَطِ، ويشتركُ مَعَهُم في لُعْبَتِهِم المُفَضَّلَةِ، لعبةِ الكَيْدِ والمَكْرِ.

هكذا رَأَوْا الصليبيّينَ. ولكنَّ الصليبيين كان لهم في أَنْفُسِهِم رأيٌ آخرُ. فتركُوا المسلمينَ يَعْمَهونَ في ضَلاَلِهِم، ومَضَوْا إلى تنفيذِ مُخَطَّطِهِمُ الذي رُسِمَ لهم في روما، إذْ ما كادُوا يُثَبِّتُونَ أَقدامَهُم في

القدسِ حتى أَخذَتِ الأمْدادُ والنَجداتُ تَتَدَفّقُ عليهم مِن أوروبةَ براً وبَحْراً. وعندما شَعَروا أنهم أَصبحوا أقوياءَ بما فيهِ الكفايةُ، راحوا يُغيرُون على ما حولَهُم مِن البلادِ، ويُوَسّعونَ حدودَ المناطقِ التي سَيْطَرُوا عليها. ولم يمضِ إلاّ عَشْرُ سنواتٍ حتى صارتْ لَهم دَوْلَةٌ تَمْتَدُّ من خَليجِ العَقَبَةِ جُنوباً، حتى الرُّها وقيليقيةَ شِمالاً، ومن البحرِ المتوسطِ غرباً، حتى خطٍّ يقتربُ جِداً من البلادِ الشاميَّةِ الداخليةِ: حلبَ ـ حماةَ ـ حمصَ ـ دمشقَ.

* * *

نُسْدِلُ السّتارَ الآنَ، ولِلْفِرَنْجِ في بِلادِ الشامِ دولةٌ لاتينيةٌ تتَأَلَّفُ من مَمْلَكَةٍ وثَلاثِ إماراتٍ: فأَمّا المملكةُ فهي بيتُ المقدسِ، وتضمُّ فِلسطين كلَّها، وعاصمتُها القدسُ، وأمّا الإماراتُ فهي: طرابلسُ،

وتضمُّ الساحلَ الشاميَّ من انْطَرْطُوسَ إلى بَيْروتَ، ثمَّ أنطاكيةُ، وتضمُّ الحَوْضَيْنِ الأوْسَطَ والأسْفَلَ للعاصِي، وسَهْلَ أنطاكيةَ والإسكندرونَ، وجُزءاً من قيليقيةَ، ثم الرُّها، وتضمُّ الحوضَ الأوسطَ للفراتِ.

من سقوط القدس إلى حطين

نحنُ الآنَ في عامِ ١١٨٧م، وقد مَضى على سقوطِ القُدْسِ ٨٨ عاماً. لقد حدثتْ خِلالَ هذهِ المُدَّةِ الطويلةِ أمورٌ كثيرةٌ، وتغيَّرتْ أَوضاعٌ عديدةٌ، وماتَتْ شخصياتٌ أَوِ اخْتَفَتْ، لِتَظْهَرَ مَكانَها على المسرحِ شخصياتٌ أخرى. ونُحاولُ في هذا الفصلِ أن نُعْطِيَ مُوجزاً للتغيّراتِ التي سبقتْ معركةَ حِطّينَ وأَدَّتْ إليها.

الحملات الصليبية الجديدة

ما كادتْ أَنباءُ سقوطِ بيتِ المقدسِ تصلُ

أسماعَ الغربِ، حتى استحالَ هذا الغربُ كلُّه إلى كتُلةٍ مُلتهبةٍ من الحَماسَةِ والسُّرورِ. وتعالَتِ الصَّيْحاتُ من كلِّ مكانٍ: إلى القدسِ.. إلى القدسِ!!

وزادَ في حَماسةِ المتحمِّسِينَ ما سَمِعُوهُ مِن العائدينَ مِن أخبارِ الثَّرَوَاتِ والكنوزِ الشرقيةِ التي تنتظرُ قدومَ المغامِرينَ الجُدُدِ. وهكذا راحَتِ الجيوشُ تتجمَّعُ في كلٍّ من إيطاليةَ وفرنسةَ وألمانيةَ، وتستعدُّ للمسيرِ نحوَ الشرقِ.

ففي أيلولِ سَنَةِ ١١٠٠ انْطلقتْ من لمُبارَديةَ بإيطاليةَ حملةٌ بلغَ عددُ المشتركينَ فيها ٢٠٠ ألفِ رجلٍ، يقودُها أَنْسِلْم بوِيه رئيسُ أَساقفةِ مِيلانَ. وبعدَ قليلٍ لَحِقَتْ بهم حملةٌ ثانيةٌ من فرنسةَ وألمانيةَ اشْترَكَ فيها عددٌ كبيرٌ من فرسانِ البَلَدَيْنِ ونُبَلائِهما.

والْتَقَتِ الحملتانِ في القسطنطينيةِ عامَ ١١٠١م بعد أنِ ارتكَبَتا في الطريقِ ما أصبحَ معروفاً عَنِ الصليبيينَ مِن وحشيةٍ وهمجيةٍ.

عَبرَ الصليبيونَ البوسفورَ إلى البرِّ الأسْيَويِّ بعدَ أَنِ انضمَّتْ إليهم فِرقةٌ من الجيشِ البيزنطيِّ. واتَّخذُوا طريقَهُم إلى أَنْقِرَةَ التي سَقَطَتْ في أَيديهم بسهولةٍ. ثم مَضَوْا نحوَ الشمالِ الشرقِي باتجاهِ قلعةِ نقصارَ، وغرضُهم تخليصُ الأميرِ بُوهِمُنْدَ النورمنديِّ الذي كانَ أسيراً عندَ الأتراكِ. وما كادوا يبلغونَ مدينةَ مَرْسِيغانَ حتى طلعَ عليهم قَلج أرسلانُ السلجوقيُّ بفرسانِهِ الأتراكِ، وسَحَقُهم في معركةٍ مُرَوِّعَةٍ كادتْ تأتي عليهم جميعاً. ولم يَنْجُ مِن الفَنَاءِ مِنهم سِوى القادةِ الذين فَرّوا على خُيولِهم السريعةِ إلى القُسْطنطينيةِ.

ولم تَمْضِ على ذلكَ إلا أيامٌ قليلةٌ، حتى قَدِمَ إلى القسطنطينيةِ جيشٌ فرنسي بقيادةِ وِلْيَم الثاني كُونْت نِيفرَ. فلما عَلِمَ أن الجيشَيْنِ اللومبارديَّ والفرنسي سبقاه إلى الأناضولِ، أسرعَ بالعبورِ مُتَّخِذاً طريقَهُ نحوَ الشامِ. ولم يكدْ يَصِلُ إلى هِرَقْلَةَ حتى وَجَدَ قلج أَرسلانَ في انتظارِهِ لِيُلَقِّنَهُ درساً قاسياً. وبعدَ ساعاتٍ قليلةٍ من القِتالِ هلكَ الجيشُ الفرنسي بأسرِهِ فوقَ أرضِ المعركةِ. ولم يَنْجُ منه سِوى الكُونتْ نِيفر مع عددٍ قليلٍ من حَرَسِهِ الخاصِّ، استطاعُوا بعدَ مَشاقَّ كثيرةٍ صادفَتْهم أَن يصلوا إلى أنطاكيةَ وهُم أَشباهُ عُراةٍ.

وبعدَ خمسةِ أسابيعَ كانَ يعبُرُ البوسفورَ جيشانِ صليبيانِ جديدانِ، أَحدُهُما فرنسي يقودُهُ دوقُ أَكِيتانِيه، والثاني أَلمانيٌّ بقيادةِ دُوقِ بافارِيَةَ. وحينَ

وَصَلَ الجيشانِ المُتَّحدانِ إلى هِرَقْلَةَ، كان الجنودُ قد أَخَذَ التَّعَبُ مِنهم مَأخَذَهُ، واشتدَّ عليهِمُ العَطَشُ. فلما رَأَوْا مِياه نهرِ هِرَقْلَةَ تَتَرَقْرَقُ اندفعُوا نحوَها، وأَكبُّوا عليها يَعُبّونَ. وعندئذٍ خرجَ الجيشُ التركيُّ الذي كانَ مُختبِئاً في الغاباتِ الواقعةِ على شاطىء النهرِ. ولم تكنْ إلاّ ساعاتٌ حتى كانَ الجيشانِ الصليبيانِ جُثَثاً هامِدَةً. ولم يَنْجُ مِن الذَّبْحِ سِوى دُوقِ أَكِيتانيةَ الذي هربَ إلى الجبالِ حيثُ ظلَّ أياماً يَتَخَبَّطُ في طريقِهِ حتى اهتدى أخيراً إلى طَرَسُوسَ. أما دوقُ بافارِيَةَ فلم يَنْجُ بحياتِهِ إلا بعدَ أَنْ قَذَفَ بكلِّ ما عليه من أسلحة، وولّى هارباً مَعَ اثنَيْنِ من أَتباعِهِ، فوصلَ بعدَ أَسابيعَ إلى أنطاكيةَ.

كانَ لهذهِ المعاركِ الثلاثِ أَثَرٌ بالغٌ في الطَّرَفَيْنِ: فأَما الأتراكُ فقدِ اسْتعادُوا ثِقَتَهُم بأَنْفُسِهم بعد أن

ثَأَرُوا لِهَزِيمَتِهِم في دُورِيْليومَ أَمامَ جيوشِ الحملةِ الأولى، وأَمّا الصليبيونَ فلم يعودوا يَثِقُونَ كثيراً بالخرافةِ التي أَشاعُوها عن أَنفِسِهم إِثْرَ انتصاراتِهِم في الحملةِ الأولى، وهي خرافةُ «فُرْسانِ الغربِ الذين لا يُقْهَرونَ».

التوسع الفرنجي في الشام

على الرُّغمِ من أنَّ الحَمَلاتِ الصليبيةَ الثلاثَ دُمِّرَتْ في الأناضولِ، فإِن الصليبيينَ في الشامِ تَلَقَّوْا إِمْدادتٍ ضَخْمةً وصلَتْهم سالمةً عن طريقِ البحرِ. كما أَنَّ الجُمهورياتِ الإِيطاليةَ التجاريةَ دخلتْ مَعَهم في اتفاقاتٍ تقرَّرَ بِمُوجَبِها أَنْ تُقَدِّمَ هذه الجمهورياتُ أَساطيلَها لِمُساعدةِ الفِرَنْجِ على احْتلالِ مُدُنِ الساحِلِ الشاميِّ، على أن يكونَ لها ثُلُثُ كلِّ

مدينةٍ تُفْتَحُ، مع شارعٍ وسوقٍ يكونانِ خاصَّيْنِ بها.
وتنفيذاً لِلاتِّفاقِ، أخذَ الصليبيونَ يُغيرونَ مِن الداخلِ، والجَنَويّونَ والبنادِقَةُ والبَيازِنَةُ يُغيرونَ مِن البَحْرِ، فلم يَمْضِ إلاَّ عَشْرُ سَنَواتٍ حتى سقطتْ في أَيدِيهم مُدُنُ حَيْفا و يَافَا وعَكّا وصورَ وصَيْدا و بيروتَ وطرابلسَ، وأَصبحتْ مَمْلَكَةُ بيتِ المقدسِ على اتِّصالٍ مباشرٍ مَعَ إمارةِ أنطاكيةَ في الشِّمالِ، التي تتصلُ هي أَيضاً اتصالاً مباشراً بإمارةِ الرُّها عن طريقِ شِمالِ حلبَ.

وفي الوقتِ نفسِهِ، و بسببِ ضعف رِضوانَ أَميرِ حلبَ، قامتْ إمارةُ أَنطاكيةَ الفرنجيةُ تُوَسِّعُ حُدُودَها، حتى بلغتْ أَفاميةَ جُنوباً، وقِلِيقِيَةَ شِمالاً، وامتدتْ حدودُها الشرقيةُ في خطٍ يُطَوِّقُ مدينةَ حلبَ غَرباً وشِمالاً، و يَمُرُّ بِمَعَرَّةِ النُّعمانِ وأَتَارِبَ وبِزَاعَةَ إلى عِينتابَ ومَرْعَشَ.

يقظة الشعب الإسلامي

كانَ الشَّعبُ المسلمُ حتى بعدَ سقوطِ القدسِ بعَشْرِ سنواتٍ كَمَيْةً مُهْمَلَةً لا أَثَرَ لها في الأحداثِ. فكانَ الأمراءُ وقُوّادُهم يتصرفونَ بالبلادِ وشُعوبِها كما لوكانتْ أَملاكاً خاصَّةً بِهِم، يَتَهادَوْنَها أَو يَتَبادَلُونَها فيما بَيْنَهم، أَو يَتَنازلُون عنها إلى الصليبيّينَ في صَفَقَاتٍ لا تختلفُ عن صفقاتِ البَيْعِ والشِّراءِ. أما شُعوبُها فليسَ لها إلاّ الرِّضى بما يفعلُ السادةُ، وإلاّ تقديمُ أَعناقِها في استِسْلامٍ لِيَذْبَحَها الصليبيونَ على عادَتِهِم بعدَ كلِّ احْتِلالٍ.

ولكنَّ هذه الحالَ لم تَعُدْ مَقْبولةً، وتَنامَى الإِحساسُ لدى الشعوبِ بأَنَّهُ يجبُ أَنْ يكونَ لها رأيٌ في مَصائرِها، ولا سيّما بعدَ الذي لَمَسَتْهُ عند أمرائِها

من عَدَمِ الاكْتِراثِ بِمذبحةِ القدسِ وما تلاها من مَذابحَ. في عامِ ١١١١م، قَدِمَ إلى دارِ الخِلافةِ ببغدادَ وفدٌ من أهالِي حلبَ، أثارَ غضبَهم ما أظهرَهُ أَميرُ مدينَتِهم رِضوانُ من الزَّيْغِ والانْحِرافِ بِتَواطئِهِ مَعَ جماعةِ الحَشّاشِينَ، ومِنَ الخُنوعِ والذُّلِّ والانْقيادِ لأميرِ أنطاكيةَ الفِرَنْجيِّ، فطلبُوا منَ الخليفةِ أن يَدْعُوَ إلى الجهادِ، لتخليصِهِم ممّا يتعرضونَ له من تَهديدٍ مِن قِبَلِ الفِرَنْجِ. ولمّا لم يَحْصُلوا إلاّ على وُعودٍ فارغةٍ، نزلوا إلى الشوارعِ والأسواقِ والمَساجِدِ، وأَثارُوا أَهلَ بغدادَ، وحملُوهم على التَّظاهرِ في جامعِ السُّلطانِ. ولكنَّ الخليفةَ، بدلاً من إعلانِ الجهادِ المُقَدَّسِ، راحَ يتفاوضُ مع سِفارةٍ لبيزنطةَ كانت يومئذٍ ببغدادَ، لِلْقيام بعملٍ عسكريٍ مُشتَرَكٍ ضدَّ تَانِكرْد أميرِ أنطاكيةَ الفِرنجيِّ. فلمّا علمَ الثائرونَ من الشعبِ بذلكَ، جعلُوا يَجْهَرُونَ باتّهامِ الخليفةِ

عَلاَنيةً، وصرَّحُوا له أَنَّه أبغضُ إلى المسلمينَ من الإمبراطورِ المسيحيِّ.

انزعجَ الخليفةُ لهذهِ الحركةِ الشَّعْبيَّةِ غيرِ المنتظرةِ، فارسلَ إلى السلطانِ السُّلجوقيِّ يُخْبِرُهُ بما حدثَ، فبادرَ السلطانُ إلى تشكيلِ حِلْفٍ إسلاميٍ من أمراءِ الشامِ، وسَيَّرَهُ إلى أنطاكيةَ تحتَ قيادةِ ابنِهِ. وعلى الرُّغمِ من أَنَّ هذا الحِلْفَ لم يُحَقِّقْ شيئاً، فإنَّ الأمراءَ بدؤوا منذُ ذلكَ الوقتِ يَحْسُبونَ لِمَشاعرِ رَعاياهُم حِساباً.

عماد الدين زنكي

وفي هذه الفترةِ، وعلى الضَّبْطِ في الشهورِ الأخيرةِ من عامِ ١١٢٦م، ظهرتْ على المسرحِ شخصيةٌ كانَ لها أثرٌ قويٌّ في تحويلِ مَجرى الأحداثِ. تلك هي شخصيةُ عِمادِ الدينِ زَنكي بْنِ أَقْسَنْقَر.

خاضَ زنكي الحربَ ضدَّ الفِرَنْجِ منذُ صِغرِهِ، فالمعروفُ أنه اشْتَرَكَ في الحملةِ التي قادَها أَقسقرُ البُرْسُقِيُّ ضدَّ الرُّها عامَ ١١١٤. وكان يومئذٍ صبياً صغيراً، ولكنّه أَبدى من ضروبِ البَسالةِ والذكاءِ ما لَفَتَ الانتباهَ إليه. وظلَّ يترقّى في المناصبِ العسكريةِ حتى غدا أَتابِكاً للمَوْصِلِ.

نظرَ زِنكي إلى نَفْسِهِ على أَنه بطلُ المسلمينَ في مُنازلةِ الفرنجِ. على أنه لم يَشَأ أن يُقاتِلَهم إلا بعدَ أنْ يُتِمَّ استعدادَهُ، فوقَّعَ هُدْنَةً مَعَ جُوسِلِينَ أَميرِ الرُّها مُدَّتُها سنتانِ، أخذ أثناءَها يُوَطِّدُ سلطانَهُ في الشامِ. كانتْ حلبُ أَوّلَ هدفٍ له، لأنها أَقربُ البلادِ الشاميةِ مِنه، ولأَهَمِّيَّتِها الاستراتجيةِ بسبب توسُّطِها بين إمارَتَي الرُّها وأنطاكيةَ الفِرَنجيتَيْنِ. ولم يلقَ في ضَمِّها إلى مُلْكِهِ أدنى صعوبة. ذلكَ أنَّ أَهالِيَها

ـــ وهُنا نرى مرةً أخرى فاعليَّةَ الشعبِ في الأحداثِ ـــ فتحوا لهُ أبوابَ المدينةِ مُرَحِّبينَ بهِ بعدَ أن سَئمُوا مناوراتِ حُكَّامِهم السابقِينَ. ولم يلبثْ أمراء شَيْزَرَ وحماةَ وحمصَ أَنْ بادروا إلى الاعْترافِ بسيادَتِهِ. أما دمشقُ فقد ظلَّتْ تقاومُ مُستغِلَّةً قُرْبَها من مملكةِ بيتِ المقدسِ التي أدركَ ملكُها الفرنجيُّ الأهدافَ البعيدةَ لسياسةِ زَنكي، فأخذَ يُحْبِطُ كلَّ محاولةٍ من شأنِها وقوعُ دمشقَ في حَوْزَتهِ. على أَنَّ زنكي أكتفى بما تَحَصَّلَ له من قُوَّةٍ، وراح يُوَجِّهُ ضَرَباتِهِ المُحْكَمَةَ إلى الفرنجِ. ففي نهايةِ شهرِ تموزَ من عامِ ١١٣٧ اسْتَوْلى على حِصْنِ بَعْرينَ في البُقَيْعَةِ، وبعدَ سنتَيْنِ اسْتَوْلى على بَعْلَبَكَّ وأَقامَ على حُكْمِها نجمَ الدينِ أَيّوبَ، فصارَ يُهَدِّدُ إمارةَ طرابلسَ الفرنجيةَ تهديداً مباشراً، بعد أن قطعَ طريقَ إتِّصالِها بإمارةِ أنطاكيةَ مِن الداخلِ.

على أَنَّ أَهمَّ ضربةٍ أنزلَها المسلمونَ بالفرنجِ هي الاسْتِيلاءُ على الرُّها، وتقويضُ أوَّلِ إمارةٍ لاتينيةٍ أَقامَها الصليبيونَ في الشرقِ. ففي عامِ ١١٤٤ سَنَحتِ الفُرصةُ التي ظلَّ زنكي يَتَرَقَّبُها طويلاً. فقد ماتَ يُوحنّا الإمبراطورُ البيزنطيُّ الذي كانَ أَشَدَّ أعداءِ زَنْكِي. وكانت مملكةُ بيتِ المقدسِ في حالةٍ من الضَّعْفِ لا تسمحُ لها بِمَدِّ يَدِ المساعدةِ إلى غَيْرِها، كما أَنَّ إمارَتَي الفِرنجِ في الشِمالِ، أنطاكيةَ والرُّها، قد دبَّ النِّزاعُ بينَ أَميريهما.

انتهزَ زنكي هذهِ الفرصةَ الثمينةَ، فقامَ في الخريفِ بمهاجمةِ قَرَه أَرْسَلانَ الأُرتُقِيِّ أميرِ ديارِ بَكْرٍ. وكانَ هذا طُعْماً لإخراجِ جُوسَلِينَ أَميرِ الرُّها من مدينتِهِ. ذلك أنه كانَ بينَ جوسلينَ وقره أرسلانَ محالفةٌ تقضي بأن يَهُبَّ كلٌّ منهما لمساعدةِ الآخرِ في

حالِ تعرُّضِهِ لهجومٍ خارجيٍ. فلما هاجمَ زنكي قره أرسلانَ خرج جوسلينُ من الرُّها بجيشِهِ الكثيفِ لمساعدةِ حليفِهِ، ولكنّه لم يَتَّجِهْ مباشرة نحو ديارِ بكرٍ، بل ذهبَ إلى الفراتِ لقطعِ الإمداداتِ عن زَنْكِي التي قد تأتِيه من حلبَ. وعندئذٍ تركَ زنكي ديارَ بكرٍ، وأَسرعَ إلى مدينةِ الرها فضربَ عليها الحِصَار. أَمّا جوسلينُ فلم يَنْتَبِهْ إلى الفَخِّ الذي أَوْقَعَهُ فيه زنكي إلاَّ بعدَ فواتِ الأوانِ. فظلَّ مع جيشِهِ على ضِفافِ الفراتِ لا يجرُؤ على العودةِ إلى مدينتِهِ خوفاً من الاصْطِدامِ بزنكي الذي كان سَيَسْحَقُهُ حتماً.

بعدَ أربعةِ أسابيعَ من الحِصارِ سقطتِ الرُّها، فزالتْ بسقوطِها أَوَّلُ إمارةٍ لاتينيةٍ للفرنجِ بالشرقِ، وكانَ ذلكَ إنذاراً بما ينتظرُ الوجودَ الفرنجيَّ كلَّهُ من مصيرٍ مَشؤومٍ.

إن أَهَمِّيَّةَ العملِ المجيدِ الذي حقَّقَهُ زنكي لا ترجعُ إلى ضخامةِ ما حرَّرَهُ من أراضٍ إسلاميةٍ، إذْ لم تكنِ الرها سِوى مدينةٍ واحدةٍ، ولكنّها ترجعُ إلى أَنه جَعَلَ محاربةَ الفِرَنْجِ سِياسةً ثابتةً، ووضعَ للمسلمينَ هدفاً نهائياً أَوجبَ عليهم أَنْ يَبْلغوه، وهو القضاءُ التامُّ على الوجودِ الصليبيِّ في الشرقِ. وليسَ تحريرُ الرها سوى مرحلةٍ أولى على هذا الطريقِ الطويلِ.

وماتَ عِمادُ الدينِ زنكي بعدَ سنَتَيْنِ. قَتَلَهُ وهو نائمٌ خادمٌ له من أصلٍ فِرَنْجيٍ. قالوا: إنه انتقم لنفسِهِ إذ عَنَّفَهُ سيِّدُهُ حينَ فاجأَه يشربُ الخمرَ من كَأسِهِ، ولكنّنا نظنُّ أنه لم يرتكبْ هذه الجريمةَ إلا انتقاماً لبني جِلْدتِهِ الذينَ أَضحتْ نهايتُهم التعيسةُ قريبةً. مات زنكي، ولكن بعد أن خلَّفَ لنا من

أولادِهِ بطلاً يحملُ لواءهُ، ويمضي قُدُماً في طريقِهِ، هو نورُ الدينِ محمودُ بنُ زنكي.

الحرب الصليبية الثانية

ما كادتْ أَنباءُ سقوطِ الرها تبلغُ مسامِعَ البابويةِ في روما، حتى ثارتْ ثائرَتُها، واشتعلتْ مرةً أخرى أحقادُها، وراحتْ تُثِيرُ العالَمَ المسيحيَّ للقيامِ بحربٍ صليبيةٍ ثانيةٍ. فَوَجَّهَ البابا يُوجينْيُوسُ مرسوماً إلى المَلِكِ لويسَ السابعِ، وكلِّ الأمراءِ والمؤمنينَ بمملكةِ فرنسةَ، يَحُثُّهُم فيهِ على النهوضِ لنجدةِ الشطرِ الشرقِي من العالمِ المسيحيِّ، ويَعِدُهُم بضمانِ ممتلكاتِهِم في الدنيا، وغُفرانِ ذُنوبِهم في الآخرةِ. ثم أَردفَ ذلكَ بإرسالِ أَتباعِهِ إلى أَلمانيةَ وفرنسةَ يَهيجونَ الناسَ، ويُثِيرونَ عواطِفَهُم الدينيةَ.

هبَّتْ أوروبَةُ على بَكْرَةِ أبيها تَصِيحُ صَيْحاتِ الحربِ. حتى إنّ ما أعِدَّ مِن الأقمشةِ لِصِناعةِ الصُّلبانِ لم يَكْفِ المتطوِّعينَ، فراحَ بعضُهم يَخْلَعُ ثِيابَهُ و يَقُصُّها لتوفيرِ صُلبانٍ تكفي. وكتبَ القديسُ برناردُ للبابا يصف له شِدَّةَ حماسةِ النـاسِ وكثرةَ المتطوعينَ فقالَ:

— «لم أَكَدْ أفتحُ فمي واتحدثُ حتى تكاثرَ الصليبيونَ، فلا حَصْرَ لعددِهِم، فالقرى والمدنُ هجرَها أهلُها وسُكانُها، فلا تكادُ تجدُ رجلاً واحداً لِكُلِّ سَبْعِ نِساءٍ. و يُصادفكَ في كلِّ مكانٍ الأراملُ اللاّئي ما زالَ أزواجُهُنَّ أحياءً».

* * *

في نهايةِ أيّارَ من عامِ ١١٤٧، انطلقَ مِن المانيةَ

الملكُ كونرادُ على رأسِ جيشٍ بالغِ الضخامةِ. قَدَّرَ المؤرخونَ الغربيونَ الذين هالَهم هذا الجيشُ، قدروا عددَهُ بمليونِ محاربٍ. فإذا قَسَمْنا العددَ على عَشَرَةٍ، لِحذفِ المبالغاتِ المعتادةِ في مثلِ هذهِ الأحوالِ، فإنَّ عددَ الجيشِ الألمانيِّ لم يكنْ يَقِلُّ عن مِائةِ ألفِ مُقاتلٍ وحاجٍّ. ولا عجبَ في ذلكَ، فقد كانَ في الحقيقةِ خمسةَ جيوشٍ لا جيشاً واحداً. إذ كانَ يضمُّ جيشَ المانيةَ تحتَ قيادةِ المَلِكِ كُونْرادَ، وجيشَ بوهيميةَ تحتَ قيادةِ مَلِكِها فْلادِيسلافَ، وجيشَ بُولاندا تحتَ قيادةِ مَلِكِها بُولِيْسلافَ الرابعِ، وجيشَ سوابيةَ تحتَ قيادةِ دُوقِها فرِدْرِيكَ، وجيشَ اللورينِ تحت قيادةِ اثنْينِ من الأساقفةِ.

وفي تشرينَ الأوّلِ من عامِ ١١٤٧، عبرَ كونرادُ البوسفورَ بجيوشِهِ الصليبيةِ الهائلةِ، بعد أَنْ مارسَتْ

هذهِ الجيوشُ، خلالَ الطريقِ وأثناءَ إقامَتِها في القسطنطينيةِ، هوايتَها المُفَضَّلَةَ في قتلِ الناسِ الأبرياءِ، ونهبِ المُدُنِ والقُرى. فلما بلغوا في ٢٥ تشرينَ نهرْ بَاتِيسَ، قُربَ دُوريلْيومَ، انقضَّ عليهِم الجيشُ السُلجوقيُّ كلُّه. كان الرجّالةُ الألمانُ قدِ اسْتبدَّ بهمُ التَّعبُ والظَّمأ، كما أَنَّ عدداً من الفرسانِ ترجَّلوا عن خُيولِهم المنهوكةِ القُوى كيما تَنالَ قَدْراً من الراحةِ، فأخذتْهم على حينِ غِرَّةٍ فرسانُ التركِ الخِفافُ، وشَنُّوا عليهم هَجماتٍ سريعةً مفاجئةً مُتلاحقةً. والواقعُ أنّها لم تكنْ إلاّ مَذْبَحةً لا معركةً. وحاولَ كونرادُ عَبَثاً أن يجمعَ شَتاتَ رِجالِهِ. غير أنَّه لم يَحُلَّ المساءُ حتى لاذَ بالفِرارِ مَعَ مَن بَقِيَ مِن رِجالِهِ عائدينَ إلى نِيقِيَةَ. لقد خَسِرَ كونرادُ تِسعةَ أَعشارِ جيشِهِ وكلَّ محتوياتِ معسكرِهِ. ولمّا لم يَجْرُؤْ على العودةِ إلى وطنِهِ مُكَلّلاً بأكاليلِ الخِزْيِ والعارِ،

فقد طلبَ مِن إمبراطورِ بيزنطةَ أن يُعِدَّ له أسطولاً يحملُه مع بقايا جيشِهِ المُحَطَّمِ إلى فِلِسطينَ.

وفي هذهِ الأثناءِ كانَ المَلِكُ لويسُ السابعُ، مَلِكُ فرنسةَ، يُغِذُّ السَّيْرَ نحوَ القسطنطينيةِ على رأسِ جيشٍ لا يَقِلُّ عدداً عن جيشِ كونرادَ. وعندما عبرَ البوسفورَ في أولِ تِشرينَ الثاني، الْتقى بكونرادَ، ورأى ما حلَّ بجيشِهِ من كارثةٍ ماحقةٍ، فلم يَشَأْ أَنْ يَلقَى المصيرَ نفسَهُ، فرأى أَنْ يُساحِلَ بجيشِهِ ليكونَ تحتَ حمايةِ الحُصونِ البيزنطيةِ المتناثرةِ على طولِ الساحلِ. ولا سيّما بعدَ الرسالةِ التي تلقّاها من إمبراطورِ بيزنطةَ، والتي يُخْطِرُهُ فيها أن التُّركَ نهضُوا للقتالِ، وينصحُهُ أن يتجنَّبَ نِزالَهُم، وأن يلتزِمَ طريقَ الساحِلِ. ومع ذلك لم يتمكَّنْ من تَحاشِي التركِ الذين راحوا يضغطونَ بقوةٍ على جَناحَيْهِ،

ويَخْطَفُونَ الجنودَ الشاردينَ والمتخلِّفِينَ عَن المؤخرةِ. وعندما صارَ على مَقْرَبَةٍ من سهلِ أَضالِيَةَ، انقضَّ المسلمونَ عليه كالبَواشِقِ، فلم يُنْقِذْهُ من الموتِ والدمارِ إلاّ حُلولُ الظلامِ. لقد صَمَدَ الصليبيونَ في القِتالِ، لكن خسائِرَهُم كانت فادحةً.

وفي اليوم التالِي لم يعدْ لويسُ يجرُؤ على متابعةِ سيرِهِ بَرّاً. فطلبَ مِن حاكِمِ أَضاليةَ البيزنطيِّ أن يُعِدّ لَهُ أسطولاً ينقلُهُ إلى السُوَيْدِيَّةِ بَحْراً. ولما كانتِ السفنُ التي توفرتْ قليلةَ العددِ، فإنَّ لويسَ اكتفى باصطِحابِ حاشِيَتِهِ وأكبرِ عددٍ ممكنٍ من فُرسانِهِ. واقلعتْ بهم السفنُ إلى السويديةِ ميناءِ أنطاكيةَ، فبلغوها في ١٩ آذارَ عامَ ١١٤٨. وبعد أيامٍ حَذا البنلاءُ الفرنسيونَ حَذْوَ ملكِهِم، فانتقلوا بفُرسانِهِم بحراً بما توفَّر لهم من سُفنٍ قليلةٍ. أمّا المشاةُ فقد طلبَ

منهم أن يُكْمِلوا طريقَهُم إلى أنطاكيةَ برّاً. ولكنْ لم يصلْ منهم إلى أنطاكيةَ في أَواخرِ الربيع إلاّ أقلُّ من نصفِ عددِهِم.

نهاية الحرب الصليبية الثانية

ما كادَ لويسُ يصلُ إلى أنطاكيةَ حتى أَسرعَ أمراءُ الفرنجِ إلى استقبالِهِ. وراحَ كلٌّ مِنهم يُحاولُ إقناعَهُ بالاشتراكِ مَعَهُ في مشاريعِهِ العسكريةِ الخاصةِ بِهِ. فالكونتُ جوسلينُ يريدُ استرجاعَ كُونْتِيَّتِهِ المفقودةِ (الرُّها)، أما رِيمُونْدُ أَميرُ أنطاكيةَ فَيُفضِّلُ القيامَ بحملةٍ صاعقةٍ على حلبَ لكسرِ شوكةِ نورِ الدينِ بنِ زنكي الذي أَعادَ سِيرةَ أَبيهِ، وانتزعَ من أنطاكيةَ أكثرَ ممتلكاتِها في وادي العاصي. ولكنَّ الملكَ لويسَ لم يسمعْ لأحدٍ، وأَعلنَ أَنه سيمضِي

قُدُماً إلى فِلِسطينَ، لأنَّ يمينَ المحاربِ الصليبيِّ التي خَلَفَها، تُلْزِمُهُ بالتَّوَجُّهِ أولاً إلى بيتِ المقدسِ قبلَ النهوضِ بأيةِ حملةٍ عسكريةٍ كانت. وهكذا تقرَّرَ أَنْ يَسيرَ الجميعُ إلى فِلِسطينَ.

عندما وصلَ لويسُ إلى فلسطينَ وجدَ الملكَ كونرادَ قد سبقَهُ إليها عَن طريقِ البحرِ. وإذِ اكْتملَ وصولُ جميعِ الصليبيينَ القادمينَ من أوروبةَ، دعتْهم ملكةُ بيتِ المقدسِ وزوجُها الملكُ بَلْدَوينُ الثالثُ إلى عَقْدِ اجتماعٍ لتقريرِ ما ينبغي عملُه. وبعدَ المناقشاتِ قرَّر المجتمعونَ أَنْ يوجِّهوا كلَّ قواتِهم الصليبيةِ في هجومٍ مُرَكَّزٍ على مدينةِ دمشقَ.

وسارَ الجيشُ الصليبيُّ، الذي يُعَدُّ أضخمَ ما قذفَ به الفرنجُ، إلى ساحةِ المعركةِ. وفي يومِ السبتِ ٢٤ تموزَ عسكرَ على حافَةِ الحدائقِ والبساتينِ المعروفةِ

بغُوطَةِ دمشقَ. وفي أَثناءِ ذلكَ كانَ أَنَرُ أميرُ المدينةِ يُهَيّىء قواتِهِ، ويرسلُ الرُّسُلَ إلى الأمراءِ المسلمينَ بطلبِ المساعدةِ العاجلةِ. واستعدَّ أهالي دمشقَ لحربٍ شعبيةٍ داخلَ المدينةِ إذا لم تَصْمُدِ التحصيناتُ أمامَ الجيشِ المُغيرِ، فأقامُوا المتاريسَ في الشوارعِ، وتسلَّحوا بكلِّ ما يُمكنُ أن ينفعَ في القِتالِ.

تقدمَ الصليبيونَ إلى قريةِ المَزَّةِ لِتَوافُرِ الماءِ بها. وحاولَ جيشُ دمشقَ مَنْعَ تقدُّمِهم، لكنَّه اضْطُرَّ إلى الارْتِدادِ إلى ما وراءَ الأسوارِ. واغترَّ الصليبيونَ بما أحرزُوا من نصرٍ مَبْدئيٍّ، فتوغَّلوا في بساتينِ الغُوطةِ لِيُطَهِّرُوها من المُقاتِلينَ الذينَ أَخذوا يَشُنّون عليهم حرَب عصاباتٍ مُنْهِكَةً. واستطاعوا بعد جَهْدٍ أن يبلُغوا الرَّبْوَةَ الواقعةَ على نهرِ بَرَدى تحتَ أسوارِ المدينةِ مُباشرةً. غيرَ أن المدَّ لم يلبثْ أن تحوَّلَ في اليوم

التالِي. فالإمداداتُ الإسلاميةُ بدأَتْ تَتَدفَّقُ على المدينةِ من أَبوابِها الشِّماليةِ. وبفضلِ مُساعدتِها قامَ أَنَرُ بِهُجومٍ مُضادٍّ رَدَّ بِهِ الصليبيينَ عَن الأسوارِ. وأعادَ الكَرَّةَ بِمُهاجمتِهِم في اليَوْمَيْنِ التالِيَيْنِ، بينما توَغَّلَ رجالُ العصاباتِ مَرَّةً أخرى في البساتينِ، وأَضحتْ هَجَماتُهُم منَ الخطورةِ على المعسكرِ الصليبيِّ بحيثُ قَرَّرَ قادتُهُ الانتقالَ بِهِ إلى جِهةِ الشرقِ، وإِقامتَهُ في بُقْعةٍ لا يَتَهَيَّأُ فيها للمسلمينَ هذا السِّتارُ. وما كادُوا يفعلونَ ذلكَ حتى تَبَيَّنَ لهم مِقْدارُ الخَطَأِ الفادِحِ الذي وَقَعُوا فيه. فقد كانَ المَوْقعُ مُفتقراً إلى الماءِ، كما أَنَّه يواجِهُ أمتَنَ قَطّاعٍ في السورِ وأَكْثَرَهُ قوةً. وهكذا ضاعتْ على الجيشِ الصليبيِّ آخِرُ فرصةٍ له لِلاستيلاءِ على مدينةِ دمشقَ. بل أَضحى الجيشُ المُغيرُ، لا المدينةُ المحاصرةُ، في مَوْقِفِ الدفاعِ.

ووصلَتِ الأنباءُ بأنّ جيشَ نورِ الدينِ في حِمْصَ يستعدُّ للتحرُّكِ، فلم يَجِدِ الصليبيونَ بُدّاً من فَكِّ الحِصارِ قبلَ أن يَقَعوا بين نارَيْن وتَحُلَّ بهم الهزيمةُ الساحقةُ. وفي يوم الأربعاءِ، أي بعدَ وصولِهم بخمسةِ أيامٍ، قاموا فَجْراً بإزالةِ معسكرِهِم، واتخذُوا طريقَ العودةِ نحوَ الجَليلِ. ولكنَّ فرسانَ المسلمينَ لم يَدَعوهُم يرْحَلونَ في سَلامٍ، فظلّوا طَوالَ ذلك اليوم، وبضعةَ أيامٍ تاليةٍ، يضغطون على جَناحَيِ الجيشِ الصليبيِّ، ويمطرونَ عساكرَهُ بوابلٍ من السِّهامِ. وتناثرتْ جُثَثُ الرجالِ والخَيْلِ على امتدادِ الطريقِ، وأفسدتْ رائحتُها العَفِنَةُ كلَّ السهلِ شهوراً عديدةً تاليةً.

وفي أوائلِ آبَ ١١٤٨ عادتْ إلى فلسطينَ الحملةُ الحربيةُ الكبيرةُ، ورجعتِ العساكرُ الصليبيةُ المحليَّةُ

إلى قواعِدِها. وكلُّ ما حقَّقَتْهُ هذه الحملةُ هو أنَّها فقدتْ عدداً كبيراً من رجالِها، وقدراً كبيراً من عَتادِها، وتعرَّضَت لِهوانٍ شديدٍ. والواقعُ أنَّ ما حدثَ من إرغامِ جيشٍ، في هذهِ الضخامةِ والرَّوْعةِ، على التخلِّي عن تحقيقِ هدفِهِ ولم يَنْقَضِ على القتالِ سِوى أربعةِ أيامٍ، يُعَدُّ ضربةً قاصمةً لِكرامةِ الصليبيينَ. وبِذا تَبَدَّدَتْ نهائياً أسطورةُ (فُرسانِ الغربِ الذين لا يُقْهَرون) التي نَمَتْ وتَرَعْرَعَتْ أَثناء مُغامرةِ الحربِ الصليبيةِ الأولى.

نور الدين محمود

بعدَ موتِ عمادِ الدينِ زنكي انقسمَتْ مملكتُهُ بينَ وَلَدَيْهِ الأكْبَرَيْنِ: سيفِ الدينِ، ونورِ الدينِ. فأمّا الأولُ فكانت له المَوْصِلُ وديارُ بكرٍ ومارَدِينُ،

وأَمّا الثاني فكانت له حلبُ وحماةُ وحمصُ. واتَّفقَ الأخَوانِ على الحِفاظِ على عَهْدِ الأسْرَةِ، وعدمِ الاعْتداءِ، وأَن يُساعدَ أَحدهُمُا الآخرَ عندَ الحاجةِ. وكانَ هذا الاتِّفاقُ أَعظمَ ما هَيَّأ لنورِ الدينِ أن يتفرَّغَ لحربِ الصليبيّينَ، وأَنْ يُجَدِّدَ سِيرةَ أَبيهِ الراحل.

اعْتلى نورُ الدينِ عرشَ حلبَ وسِنُّهُ لا تَتجاوزُ التاسعةَ والعِشرينَ. لكنَّ ما اتَّصفَ بهِ من رَجاحةِ العقلِ تجاوزَ سنواتِ عُمُرِهِ، وأثارَ إعجابَ أعدائهِ بما اشتهرَ به مِن العَدالةِ والإحسانِ والتقوى الصادقةِ. وكان صحيحَ الحُكْمِ على الرجالِ، بارعاً في اخْتيارِهِم. ومن أبرزِ الرجالِ الذينَ ساعدوه في تحقيقِ مشروعاتِهِ وبناءِ مَجْدِهِ، أَسَدُ الدين شِيرْكُوه، وأَخُوه نجمُ الدينِ أَيّوبُ، وصلاحُ الدينِ يوسفُ الذي هُوَ ابنُ نَجْمِ الدينِ.

إنّ الحديثَ عِن أعمالِ هذا الرجلِ العسكريةِ والعُمرانيةِ والخَيْرِيَّةِ يَتَطَّلبُ تخصيصَ كتابٍ كاملٍ. وإذْ كُنّا في عجلةٍ من أمرِنا للوصولِ إلى حِطِّينَ، فإنّا سنكتفي بالإشارةِ السريعةِ إلى ما يتعلّقُ بموضوعِنا:

١ ـــ أَتَمَّ أعمالَ أبيهِ زنكي في الاستيلاءِ على ما بَقِيَ من حُصونِ كُونْتيَّةِ الرُّها.

٢ ـــ تحالفَ ضِدَّهُ رِيمونْدُ أَميرُ أنطاكيةَ، وعليُّ ابْنُ عوف مُقَدَّمُ الحَشَّاشِينَ، فسارَ إليهما، والْتقى بِهما في الغابِ عامَ ١١٤٩، فقتلَهُما وأَبادَ جَيْشَيْهما.

٣ ـــ في عام ١١٥٠ أَسَرَ جُوسلينَ كُونْتَ الرُّها، وسجنَهُ في حلبَ حتى ماتَ.

٤ ـــ استوْلى على جَميعِ الحصونِ المُحيطةِ

بأَنطاكيةَ، حتى لم يَبْقَ لهذهِ الإمارةِ إلاّ مدينةُ أنطاكيةَ نفسُها، والسهلُ المحيطُ بِها، والساحلُ من الإسكندرونِ إلى اللاّذِقِيَّةِ.

٥ ــ في عامِ ١١٥٤ حقَّق حُلمَ أبيهِ الذي ماتَ قبلَ تحقيقِهِ، وهو ضمُّ دمشقَ إلى مملكتِهِ النُّورِيَّةِ التي غَدَتْ تَمْتَدُّ من الرُّها ومَرْعَشَ شِمالاً، حتى خليجِ العقبةِ جُنوباً. أيْ في مُواجَهَةِ كلِّ ممتلكاتِ الفِرنجِ على الساحلِ الشاميِّ.

٦ ــ دخل مَع مملكةِ بيتِ المقدسِ الفرنجيةِ في سِباق محمومٍ للاستيلاءِ على مِصْرَ بعدَ ضَعْفِ الخلافةِ الفاطميةِ فيها. ورَبِحَ السباقَ أخيراً بفضلِ قائِدِهِ المشهورِ أَسَدِ الدينِ شِيرْكُوه، وابنِ أَخيه صلاحِ الدينِ. فغدا بذلكَ أَعظمَ مَلِكٍ مسلمٍ في الشَّرقِ،

والمُرَشَّحَ الأوَّلَ لقيادةِ العالمِ الإسلاميِّ ضِدَّ الصليبيينَ.

لم يَمْتَدَّ بنورِ الدينِ الأجَلُ لتحقيقِ حُلْمِهِ وحُلْمِ أَبيهِ، فَتُوُفِّيَ عامَ ١١٧٤ عَن عُمرٍ يُناهِزُ السابعةَ والخَمسينَ تاركاً لصلاحِ الدينِ أن يُكَمِّلَ ما بَدَأَهُ.

نهاية الخلافة الفاطمية

بدأَ الضعفُ يَدِبُّ في أَوصالِ الخِلافةِ الفاطميةِ من قَبْلِ بَدْءِ الحروبِ الصليبيةِ. ولم يَحُلَّ عامُ ١١٥٤ حتى دخلتْ في طَوْرِ النَّزْعِ الأخيرِ، ولاحتْ نهايتُها المحتومةُ. ففي هذا العامِ نَشِطَتِ المؤامراتُ في البَلاطِ الفاطميِّ، فقُتِلَ الخليفةُ الظافرُ، ثم قُتِلَ قاتِلُوه. وتربَّع على عرشِ السُّلطةِ الحقيقيةِ ابنُ رُزَّيْكٍ حاكم الصعيدِ. أما الخليفةُ الجديدُ، وهو الفائزُ، فكانَ

صبيّاً لا حولَ له ولا قوة . ثم ما لبثَ هذا الصبيُّ أن ماتَ عامَ ١١٦٠، فخلفَهُ ابنُ عمِّهِ العاضِدُ الذي لم يتجاوزْ وقتئذٍ التاسعةَ مِن عُمرِهِ.

وماتَ الوزيرُ المتسلِّطُ ابنُ رُزِّيْكٍ، فخلفَهُ في الوزارةِ ابنُه العادلُ الذي ظلَّ يحكمُ خمسةَ عَشَرَ شهراً، ثم جاء شاوَرُ حاكمُ الصعيدِ الجديدُ، فانتزعَ الوزارةَ منه وقتلَهُ. وبعد ثمانيةِ أشهرٍ اسْتطاعَ الحاجبُ ضِرغامٌ أن يَطْرُدَ شاوَرَ مِن الوزارةِ، ويحلَّ مكانَهُ. وهنا بدأَتِ الخِلافةُ الفاطميةُ تلفظُ أنفاسَها الأخيرةَ.

ففي عامِ ١١٦٣ لجأ الوزيرُ المطرودُ شاورُ إلى نورِ الدينِ، وعرضَ عليه إذا أرسلَ جيشاً لإعادتِهِ إلى الحكمِ بالقاهرةِ، أَنْ يدفعَ نفقاتِ الحملةِ، وأن يتنازلَ له عن المناطقِ الواقعةِ على الحدودِ، وأَنْ

يعترفَ بسيادتِهِ، وأَنْ يتنازَلَ له عن ثُلُثِ خراجِ مِصر.

تردَّدَ نورُ الدينِ أَوَّلَ الأمرِ، ثم وافقَ وأرسلَ معه جيشاً كثيفاً بقيادةِ شِيركُوه. ولم ينقضِ شهرُ أيّارَ من عامِ ١١٦٤ حتى عادَ شاورُ إلى الوزارةِ، وماتَ خصمُه ضِرغامٌ. على أَنّ شاورَ نقضَ عهدَهُ بعدَ أَنْ عادَ إلى الحُكْمِ، وطلبَ من شِيركُوه الرجوعَ إلى الشامِ. فرفضَ شِيركُوه واستَوْلى على بُلْبَيْسَ، فاتَّصلَ شاوَرُ بالصليبيينَ في فِلِسطينَ، وطلبَ مِنهم مساعدتَهُ على شِيركُوه، وعرضَ عليهم لقاءَ ذلكَ أَنْ يُؤدِّيَ ألفَ دينارٍ عن كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ الرِّحلةِ من بيتِ المقدسِ إلى نهرِ النيلِ التي تبلغُ ٢٧ مرحلةً، وأَنْ يُقدِّمَ هديةً لكلِّ فارسٍ من فرسانِ الإِسْبِتاريَّةِ والداوِيَّةِ، وأَنْ يتكفَّلَ بِعَلَفِ خُيولِهم.

بادَر الصليبيونَ إلى الموافقةِ، وأرسلوا جيشَهُم الذي حاصر شِيركُوه في بُلْبَيْس مُدَّةَ ثلاثةِ أشهرٍ دون نتيجةٍ. ولكي يُخفِّفَ نورُ الدينِ من ضَغْطِ الصليبيينَ على جيشِهِ في مِصر، راحَ يُغِيرُ على المملكةِ الصَّليبيَّةِ من جِهَةِ الشِّمالِ. وعندئذٍ اضْطُرَّ الصليبيونَ إلى التفاوُضِ مَعَ شِيرْكُوه. وتَقَرَّرَ أَنْ ينسحبَ الجَيْشانِ معاً مِن مصرَ: الجيشُ الصليبيُّ، والجيشُ النُّورِيُّ.

وفي نهايةِ عامِ ١١٦٦ حصلَ شِيركُوه على إِذْنٍ من سَيِّدِهِ نورِ الدينِ بالتَّوَجُّهِ مرةً أخرى لِغزوِ مصر. وفَصَلَ في كانونَ الثاني ١١٦٧ من دمشقَ ومَعَه ابنُ أَخِيه صلاحُ الدينِ. وما كادتِ الأخبارُ تصلُ شاورَ حتى أَسرعَ إلى التَّحالفِ معَ الصليبيينَ لِحمايتِهِ من شِيركُوه ووعدَهُم بأَنْ يُؤدِّيَ لهم ٤٠٠ ألفِ دينارٍ،

يدفعُ نصفَها في الحالِ، و يدفعُ النصفَ الآخرَ فيما بعدُ، شريطةَ أَنْ يُقْسِمَ ملك الفِرنجِ بألاّ يُغادِرَ مصر إلا بعدَ طردِ شِيركُوه منها.

أسرعَ الصليبيونَ بجيشِهم ليقطعوا الطريقَ على شِيركُوه في صحراءِ سيناءَ. ولكنَّهم وصلوا متأَخِّرينَ، إذْ كان شِيركُوه بجيشِهِ الخفيفِ المؤلفِ من الفرسانِ قد دخلَ الأراضِيَ المصريةَ. وعندئذٍ لَحِقُوا به إلى مصرَ، وانضموا إلى جيشِ شاورَ المِصريِّ. كان الجيشانِ المتحالفانِ يتفوّقانِ على جيشِ شِيركُوه من الناحيةِ العدديَّةِ تفوُّقاً ساحِقاً. ومعَ ذلك قرَّر شيركُوه خوضَ المعركةِ مُعتمداً على فرسانِهِ الخِفافِ، فاسندَ قيادةَ القلبِ إلى صلاحِ الدينِ، وأَمرَهُ بالتظاهُرِ بالانْهزامِ بُعَيْدَ نشوبِ القِتالِ.

نَفَّذَ صلاحُ الدينِ خُطـةَ عَمِّهِ، فما كادَ القِتالُ

يَنْشَبُ حتى انْسَحَبَ بالقلبِ إلى الخلفِ. ولمّا خَفَّ الملكُ الصليبيُّ أَمِلْريكُ إلى مُطارَدَتِهِ بفرسانِهِ، قذفَ شِيركُوه بِجَناحِهِ الأيمنِ على الجناحِ الأيْسرِ للجيشِ الفرنجيِّ المصريِّ، فحطَّمَهُ وأَبادَهُ. وعندئذٍ رأى أَمِلْريكُ نفسَهُ محصوراً من ثَلاثِ جِهات بِعدَ أَنِ ارْتَدَّ عليهِ صلاحُ الدينِ، فقرَّ مِن المعركةِ، ولَحِقَ بحاميتِهِ التي تركَها في القاهرةِ.

على الرُّغم مِن النصرِ الباهرِ الذي حقَّقَهُ شيركوه، فإنَّه لم يَسْتَطِعِ اقْتحامَ القاهرةِ، لأنَّ الجيشَ المتحالفَ الذي تحصَّنَ بها ظلَّ متفوِّقاً بالعددِ بِرُغمِ الخسائرِ التي مُنِيَ بها. وعندئذٍ سارَ إلى الإسكندريةِ ففتَحَها، فلحقَهُ الجيشُ الفرنجيُّ المصريُّ فحاصرَهُ بها. ثمَّ جرى الاتِّفاقُ على أن يَجلوَ الجيشانِ النوريُّ والفِرَنجيُّ، من مصرَ، كما حدثَ في المرةِ السابقةِ.

على أَنَّ شاوَرَ اضْطـرُ هذه المرةَ إلى توقيعِ اتفاقيةٍ معَ الفرنجِ، تقرر بِمُوجَبِها أن يدفعَ لهم جِزْيَةً سنويةً قدرُها ١٠٠ ألفِ دينارٍ، وأن يقبلَ بوجودِ مندوبٍ سامٍ لِلْفرنج مُقيم بالقاهرةِ، وأن تظلَّ بالقاهرةِ حاميةٌ فرنجيةٌ تتولّى حِراسةَ أبوابِ المدينةِ.

على الرُّغمِ من الفوائدِ الجمةِ التي حصَلَ عليها أَملريكُ من هذهِ المعاهدةِ، فإنَّه نقضَها بعدَ بضعةِ أَشهرٍ، وسارَ على رأسِ جيشٍ كثيفٍ يريدُ الاستيلاءَ على مصرَ، والفوزَ بكلِّ ثرواتِها. وأَسرعَ شاورُ بإرسالِ رُسُلِهِ إلى أملريكَ يسألونَهُ عن سببِ نقضِهِ للمعاهدةِ، فتعلَّلَ هذا بأن الكامِلَ بنَ شاورَ يُجري معَ شِيركُوهَ اتصالاتٍ سِرِّيَّةً. وإذْ برهَنُوا له أن هذه دَعْوى باطلةٌ، لجأَ إلى الابْتزازِ، ورفضَ الانْسحابَ إلاّ إذا أدّى له المِصريونَ مِلْيونَيْنِ آخَرَيْنِ منَ الدنانيرِ. بَيْدَ

أنَّ شاورَ لم يَعُدْ يَثِقُ بكلامِ الملكِ الصليبيِّ، وقرَّرَ المقاومةَ، وعدمَ الخضوعِ لِلابتزازِ. ومعَ أن شاورَ كانَ يُدرِكُ أنه أضعفُ من أَنْ يحمِيَ مصرَ، ومعَ أن الصليبيينَ احتلُّوا بُلْبَيْسَ، وأَجْرَوْا فيها مذبحةً لا تقلُّ في بشاعتِها عن مذبحةِ القدسِ، ووصلُوا إلى الفُسْطاطِ، فإنَّه لم يفكرْ بطلبِ العَوْنِ من نورِ الدينِ، بَلِ اكْتفى بأن هدَّدَ أَمِلْريكَ بأَنَّه سَيُحرقُ القاهرةَ لِكَيْلا تقعَ في أَيْدي الفرنجِ!

وعندئذٍ طَفِحَ الكَيْلُ، ولم يعدْ أَحدٌ يتحمَّلُ خِياناتِ شاورَ اللَّعِينِ. حتى ابْنُه الكاملُ لم يعدْ يستطيعُ السكوتَ، فاتَّصلَ بالخليفةِ العاضدِ، واتَّفَقا على طلبِ النجدةِ من نورِ الدينِ في الشامِ. وأسرعَ شِيركُوه بجيشِهِ الخفيفِ، ومعَه ابنُ أَخِيه صلاحُ الدينِ، فاضْطُرَّ أملريكُ إلى فكِّ الحصارِ عن

القاهرةِ، والعودةِ سريعاً إلى فلسطينَ. ودخلَ شِيركُوه القاهرةَ هذهِ المرَّةَ، وقبضَ على شاورَ، وقتلَهُ بإيعازٍ من الخليفةِ، واعتلى كُرْسِيَّ الوزارةِ، وجعلَ ابنَ أَخِيه صلاحَ الدينِ مُساعداً له.

لم يعشْ شِيركوه طويلاً بعدَ تَقَلُّدِهِ الوِزارةَ، إذْ ماتَ في ٢٣ آذار سنة ١١٦٩، فأَسندَ العاضدُ الوزارةَ إلى ابنِ أَخِيهِ صلاحِ الدينِ، ولقَّبَهُ بالملكِ النَّاصرِ.

كانَ طبيعياً ألاّ يَسْكُتَ الصليبيونَ وهم يَرَوْنَ الكمَّاشةَ تُطْبِقُ عليهم بفكَّيْها من الشِّمالِ والجُنوبِ، فأَسرعوا يطلبونَ النجدةَ مِن البابا، ويحثّونَهُ على الدعوةِ إلى حربٍ صليبيةٍ ثالثةٍ. ولكنَّ كُتُبَ التَّوْصِيَةِ التي زَوَّدَ البابا بها رُسُلَ أَملريكَ إلى ملوكِ أوروبةَ لم تُسْفِرْ عن شيءٍ، وقابَلها الملوكُ والنبلاءُ ببرودٍ زائدٍ، بعدَ أَنْ يَئِسُوا من هذهِ الحروبِ

الصليبيةِ التي لا جَدْوَى مِنها. وبعدَ عامَيْنِ قضاهما رُسُلُ أملريكَ في تَوَسُّلاتٍ غيرِ مُثْمِرَةٍ، عادُوا إلى فلسطينَ آسِفِينَ مُتَشائِمِينَ.

على أنَّ أملريكَ لم يقطعِ الأمَلَ نهائياً، فأرسلَ إلى إمبراطورِ بيزنطةَ يَعرِضُ عليهِ القيامَ بحملةٍ مُشتركةٍ ضدَّ صلاحِ الدينِ في مِصرَ. وقَبَلَتْ بيزنطةُ العَرْضَ، إذْ ليسَ مِن مصلحتِها قيامُ دولةٍ قويةٍ في مصرَ. وهكذا أقبلَ الجيشُ الصليبيُّ والأسطولُ البيزنطيُّ، فَضَرَبا الحصارَ على دِمْياطَ. وفي الوقتِ نفسِهِ دَبَّرَ كبيرُ الطَّواشِيَّةِ في البَلاطِ مؤامرةً لِقَتْلِ صلاحِ الدينِ، كما أن الموظفينَ المفصولِيْنَ حَرَّضُوا، بتشجيعٍ من الخليفةِ، حرسَ القصرِ المؤلَّفَ من النُّوبِيِّينَ (السودان) على التَّمَرُّدِ ومهاجمةِ عساكرِ صلاحِ الدينِ. ولكنَّ صلاحَ الدينِ اكتشفَ المؤامرة

في الوقتِ المناسبِ، فقتلَ المشتركِينَ فيها، كما أَنَّ أَخاه تُورانْ شاه شَنَّ هجوماً صاعِقاً على الحَرَسِ النوبِيِّ فَقَضى عليه. وعندئذٍ تَفَرَّغَ صلاحُ الدينِ لحربِ الحُلفاءِ الذين اضْطُرُّوا إلى الانسحابِ عن دِمياطَ بعد أَنْ تكبَّدوا خسائِرَ فادِحَةً.

وفي عام ١١٧١ مَرِضَ الخليفةُ العاضدُ مرضَهُ الأخيرَ، فأَلْزَمَهُ أَطِبَّاؤه الفِراشَ. وبينما هو يُعانِي سَكَرَاتِ المَوْتِ، وردَ مِن الشامِ أَمْرُ نورِ الدينِ لقائِدِهِ صلاحِ الدينِ أن يُحوِّلَ خُطْبَةَ الجُمُعَةِ مِنَ اسمِ العاضِدِ الفاطميِّ إلى اسمِ المُسْتَضِيءِ العباسيِّ. وخضعَ صلاحُ الدينِ للأَمْرِ الصادرِ إليه. ولكنْ لم يسمحْ بأَنْ يَصِلَ الخبرُ إلى العاضِدِ وهو على فِراشِ الموتِ.

ولم تمضِ إلاّ أيامٌ حتى ماتَ العاضدُ وهو لا يَعلمُ

أَنَّ الخِلافةَ الفاطميَّةَ قَدِ انْتهتْ قبلَ مَوْتِهِ. وبموتِ آخرِ الخلفاءِ الفاطميينَ أَصبحَ صلاحُ الدينِ الأيّوبيُّ السيِّد المطلقَ للإقليمِ المِصْرِيِّ، إلاَّ أنه كانَ لا يزالُ تابِعاً لنورِ الدينِ في الشامِ. فلما ماتَ هذا عامَ ١١٧٤، لم يَبْقَ فوقَ صلاحِ الدينِ سلطةٌ تَعْلُوه. وباتَ عليهِ أن يحملَ لِواءَ الجِهادِ، لِيُحَقِّقَ ما كانَ يصبُو إليه زَنكي وابنُه محمودٌ. وإذ كانَ يعلمُ أنَّ ذلكَ لا يتحققُ إلاّ بتَطْويقِ الصليبيينَ من الشمالِ والجنوبِ، فإنه راح يَتَرَقَّبُ الفُرَصَ، وينتظرُ الأيامَ.

ولأمْرٍ أَرادَه اللهُ وقعَ الخِلافُ بينَ الأسرةِ الزَنْكيةِ على اقتسامِ إرثِ نورِ الدينِ، فانتهزَها صلاحُ الدّينِ فُرْصةً، فسارَ إلى الشامِ، وقضى على المتنازِعِينَ، ووحَّدَ الشامَ ومِصْرَ، وضمَّ إليهما الحجازَ

وليبيةَ، فغدا أكبرَ ملوكِ المُسلمينَ قاطِبَةً، وتلقَّبَ بالسُّلطانِ، وأَضْحى وَحْدَهُ من دونِ سِواهُ المهيَّأَ للقيامِ بالواجبِ المقدسِ.

معركة حطين

نحن الآن في عامِ ١١٧٥. ولا يزال أمامنا ١٢ عاماً قبلَ أنْ تقعَ معركةُ حِطّينَ. وقد اشتملتْ هذهِ الفترةُ، على قِصَرِها، على سلسلةٍ من المعاركِ تميَّزَتْ بِصِفَتَيْنِ. الأولى: أنّ الصليبيينَ فيها كانوا دائماً هم الخاسِرينَ، والثانيةُ: أَنها كانت دائماً نتيجةَ نَكْثِ الصليبيينَ لعُهودِهم ومَوَاثِيقِهِم. ذلك أَنَّهم ما كادوا يشعُرون بتنامي قُوَّةِ صلاحِ الدينِ، حتى راحوا يطلبُون الهُدْنَةَ بعدَ الأُخرى، ليُرِيُحوا أَنفُسَهم، ويجدِّدُوا قُواهُم بالإمداداتِ التي كانتْ تَأتِيهم من أوروبَّةَ. ولكنّهم كانوا كلّما عقَدُوا هُدْنَةً نقضُوها،

إمّا انتهازاً لِفُرْصَةٍ، وإما طَمَعاً في غَنيمةٍ. ونرى أن اسْتِعراضاً سريعاً لأبرزِ هذهِ المعاركِ ضروريٌّ لِفَهْمِ معركةِ حِطّينَ التي لم تكنْ إلا خاتمةً لها.

الهدنة الأولى

ما إنِ اسْتَوْلى صلاحُ الدينِ على مدينةِ دمشقَ في قِصَّةِ نزاعِهِ مع وَرَثَةِ نورِ الدينِ، حتى أَسْرَعَ الصليبيونَ يطلُبونَ عَقْدَ هُدْنَةٍ مُدَّتُها سَنَتانِ، ليهيّئُوا لأنْفُسِهم فرصةَ جَلْبِ نَجَداتٍ من أوروبةَ. ووافقَ صلاحُ الدينِ على توقيعِ المُعاهدةِ، لأنَّه هو أيضاً في حاجةٍ إلى أَنْ يتفرَّغَ لِتَصْفِيَةِ حِساباتِهِ مع وَرَثَةِ نورِ الدينِ في شِمالِ الشامِ والعِراقِ. فما مضى العامُ الأولُ من الهُدنةِ حتى نقضَها الصليبيّونَ مُنتهزِينَ فُرصةَ اشتغالِ صلاحِ الدينِ بِحصارِ الموصلِ. فقامَ رِيموند كونتُ طرابلسَ بالهجوم على سِهلِ البِقاعِ،

وأَقبلَ جيشُ مملكةِ بيتِ المقدسِ لِمُساعدتِهِ. ففكَّ صلاحُ الدينِ حِصارَه عنِ المَوْصلِ، وسارَ إليهم، فانسحبُوا إلى قواعِدِهِم. ولم يشأْ صلاحُ الدينِ مطارَدَتَهم، لأنَّ مشاغلَ أخرى كانتْ تَنْتظرُه في مِصرَ.

الصليبيون ينقضون معاهدة سابقة

إلى الشِّمالِ من بحيرةِ طَبَرِيَّةَ تقعُ مَخاضةٌ على نهرِ الأرْدُنِّ، اسمُها مَخاضةُ بَناتِ يَعقوبَ. تشكِّلُ هذهِ المخاضةُ نُقطةَ حدودٍ بينَ المسلمينَ والفِرَنْجِ، ويستخدمُها الرُّعاةُ من الطَّرَفَيْنِ مَعْبراً لهم ولمواشِيهم. وكانتْ بينَ المسلمينَ والفِرنجِ اتِّفاقِيَّةٌ تقضِي بعدمِ إقامةِ تَحصيناتٍ عسكريةٍ أمامَ هذهِ المَخاضةِ. ولكنَّ فُرسانَ الداويّةِ المعروفِينَ بشدةِ كَرَاهِيَتِهِم للمسلمينَ، وعدمِ تَقَيُّدِهِم بالعهودِ

والمواثيقِ، أَجبروا مَلِكَ القدسِ على نَقْضِ المعاهدةِ وبناءِ قلعةٍ لهم أمامَ المخاضةِ. فلمّا عَلِمَ صلاحُ الدينِ بالأمرِ، أرسلَ إلى الملكِ يعرِضُ عليه سِتينَ ألفَ دينارٍ، ثم زادَها إلى مِائةِ ألفٍ، لِصَرْفِ النَّظَرِ عن المشروعِ والتمسُّكِ بالمُعاهدةِ. ولكنَّ الملكَ رفضَ، فأقسمَ صلاحُ الدينِ لَيُؤدِّبَنَّ الصليبيينَ. وراحَ يترقَّبُ الفُرصةَ لِيَبَرَّ بقَسَمِهِ.

وجاءتِ الفرصةُ في ربيعِ ١١٧٩. إذْ خرجَ الملكُ بَلْدَوِينُ، مِثلَ قُطَّاعِ الطُّرُقِ، لينهبَ الأغنامَ القادمةَ من سهولِ دمشقَ إلى بانِياسَ. فأرسلَ صلاحُ الدينِ ابنَ أَخيهِ فَرُّوخْشاه على رأسِ قُوةٍ صغيرةٍ لمراقبةِ تحركاتِ العدوِ. ولكنَّ فَرُّوخْشاه تمكّنَ من مُباغتةِ الملكِ بلدوينَ وهو في أحدِ الممراتِ الضيِّقةِ، فلم يكتفِ بالمراقبةِ، بل شنَّ عليه هجوماً صاعِقاً،

وقتلَ وأسَر عدداً كبيراً من العدوِ. ولم يتمكّنْ بلدوينُ من تخليصِ جيشِهِ من الكارثةِ إلاّ بصعوبةٍ بالغةٍ.

ولما جاءتِ الأنباءُ إلى صلاحِ الدينِ بما جرى، سارَ بجيشِهِ لتدعيمِ انتصارِ ابنِ أخيهِ، فَذُعِرَ الملكُ بلدوينُ للخبرِ، وكتبَ إلى ريموندَ كُونْتِ طرابلسَ يطلبُ منه الانحيازَ إليهِ. كما جاءتْ فرقةٌ من الداويةِ لنجدتِهِ. وعند مَدْخَلِ وادي الأرْدُنِّ التقى صلاحُ الدينِ بكونتِ طرابلسَ وفرسانِ الداويةِ، فَشَنَّ عليهم هجوماً صاعِقاً، فردَّهُم على أعقابِهِم، وَوَلَّوْا هاربينَ مذعورينَ إلى معسكرِ بلدوينَ الذي كانَ لا يزالُ مشتبكاً مع فرّوخشاه. ولحقَ بِهِم صلاحُ الدينِ. ولكنّ فروخشاه كان قد أجهزَ على جيشِ بلدوينَ، وعلى مَنِ انضمَّ إليهِ من الفارّينَ.

وهربَ الجيشُ الصليبيُّ كلُّه، فعبر بعضُهم نهرَ اللِّيطانِيِّ، ولجؤوا إلى قلعةِ شَقِيفٍ، ثم خافوا من المطاردةِ، فتركُوا القلعةَ، وهربوا إلى الساحِلِ. أما القسمُ من الجيشِ الذي لم يتمكَّنْ من عبورِ الليطاني، فقد قُتِلَ بعضُهُ وأسِرَ الباقي.

وعادَ صلاحُ الدينِ إلى القلعةِ التي بناها الصليبيونَ أمامَ مَخاضةِ بناتِ يعقوبَ، فحاصرها، ثم استوْلى عليها، وقتلَ مَن كانَ بِها، ثم دَمَّرَها حتى سَوَّاها بالأرضِ.

الهدنة الثانية

وفي مُسْتَهَلِّ عامِ ١١٨٠ أرسلَ الملكُ بلدوينُ إلى صلاحِ الدينِ يطلبُ عقدَ هدنةٍ مُدَّتُها سنتانِ. فوافقَ صلاحُ الدينِ، وجَرى التوقيعُ على الهُدنةِ في شهرِ

أيّارَ. ولكنَّ أَحَد أمراءِ الفِرَنْج، ويُدعى رِينالْد شَاتِيونَ، وكانَ العربُ يدعونَهُ أَرْناطَ، وكانَ أميراً على حِصْنٍ منيعٍ يدعى الكَرَكَ، ويقعُ جُنوبَ البحرِ المَيِّتِ.. لكن هذا الأميرَ نقضَ الهدنةَ ولم يكنْ قد مَضى عامٌ على توقيعِها، إذْ خرجَ بعساكِرِهِ مِن الكَرَكِ، وكَمَنَ بهم، كما يفعلُ قُطّاعُ الطُّرُقِ، قُرْبَ واحةِ تَيْماءَ الواقعةِ على طريقِ دمشق ـــ مكة. وبعدَ قليلٍ مَرَّتْ قافلةٌ تِجاريةٌ في طريقِها إلى المدينةِ المُنَوَّرَةِ، فانقضَّ عليها أرناطُ، وسلبَها كلَّ ما كانتْ تحمِلُهُ من نفيسِ البضائعِ. ورفعَ صلاحُ الدينِ شَكواهُ إلى الملكِ بَلدوينَ عن نَقْضِ المعاهدةِ، وطلبَ التَّعْويضَ. ولكنَّ الملكَ بلدوينَ كان أَعْجَزَ من أنْ يفرِضَ سُلطانَهُ على أميرِ الكَرَكِ، فتجاهلَ الموضوعَ. وحدثَ بعدَ أشهرٍ أن دفعتِ الرِّياحُ قافلةً من سفنِ الحُجّاجِ المسيحِيّينَ إلى ساحلِ دِمْياطَ، تُقِلُّ ألفاً

وخمسمائةِ حاجٍّ. فأَمَرَ صلاحُ الدينِ بالاسْتيلاءِ على السفنِ وتكْبيلِ رُكّابِها بالأغلالِ. ثم أرسلَ إلى بلدوينَ يعرِضُ عليه استعدادَهُ لإطلاقِ سَراحِهِم إذا ردَّ أرناطُ بضائعَ التجارِ التي نهَبَها. ولكنَّ أرناطَ رفضَ الانْصِياعَ لأمرِ ملكِهِ، مرةً أخرى، فأَضْحتِ الحربُ أمراً لا مَفَرَّ مِنْه.

أرسلَ صلاحُ الدينِ، وكانَ يومئذٍ بمصرَ، إلى ابنِ أَخِيه في دمشقَ، يأْمُرُه بشنِّ الهجومِ على مملكةِ بيتِ المقدسِ من الشمالِ. وفي الوقتِ نفسِهِ أخذَ يُعِدّ جيشَهُ في مصرَ، ثم سارَ على رأسِهِ إلى الشامِ.

وعندَ وصولِهِ إلى دمشقَ عَلِمَ أَنَّ ابنَ أخِيه فروخشاه قد شنَّ غاراتٍ موفَّقَةً على مِنْطقةِ الجَليلِ، وأَسَرَ أيضاً من الصليبيينَ، كما غَنِمَ ٢٠ ألفَ رأسٍ من الماشيةِ.

بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ قَضاها صلاحُ الدينِ في دمشق يستكمِلُ اسْتعداداتِهِ، سارَ معَ فروخشاه على رأسِ جيشٍ كثيفٍ نحو فِلسطينَ. وبعد أنْ عبرَ الأردنَّ جُنوبَ بُحَيْرَةِ طبريَّةَ الْتقى بالجيشِ الصليبيِّ قريباً من قَلعةِ كَوْكَب. وكانتْ معركةٌ ضاريةٌ انْكَسَرَ فيها الصليبيّونَ شرَّ كَسْرَةٍ، وَوَلَّوُا الأدبارَ منهزِمينَ. ولم يَشأْ صلاحُ الدينِ مُطاردَتَهم لورودِ أنباءٍ تستدعي ذهابَهُ إلى شِمالِ الشامِ.

أرناط يمارس القرصنة مرة أخرى

ما إنْ سمعَ أرناطُ بمسيرِ صلاح الدينِ نحوَ الشمالِ، حتى انتهزَها فُرصةً لتحقيقِ مشروعٍ طالما حلَمَ بهِ. وهو الاسْتيلاءُ على مَكَّةَ والمَدينةِ، وتدنيسُ الكعبةِ المشرَّفَةِ وقبرِ الرسولِ الكريمِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. فسارَ بقواتِهِ نحو خَليجِ العقبةِ، واستَوْلى على

مدينةِ أَيْلَةَ. ثم أنزلَ في الخليجِ أسطولاً يُسَيِّرُهُ قراصنةٌ مِن قَوْمِهِ، وراحَ يُغِيرُ به على المدنِ الساحليةِ على طَرَفَي البَحْرِ، مثل عِيذابَ والحَوْراءِ و يَنْبُعَ وغابِرَ. واستَوْلى في البحرِ على سُفُنٍ تجاريةٍ كانت قادمةً منَ الهندِ. كما أَغرقَ سفينةً كانَ يستقلُّها الحجاجُ في طَريقِهِم إلى جُدَّةَ.

أرسلَ صلاحُ الدينِ إلى أَخِيه الملكِ العَادِلِ، وكانَ والياً على مِصرَ، يأمُرُهُ باتِّخاذِ إجراءٍ يتناسبُ معَ هؤلاءِ القراصنةِ اللّصوصِ. فوجَّه العادلُ الأسطولَ المِصريَّ لمطاردةِ الفرنجِ تحتَ قيادةِ حُسامِ الدينِ لُؤلُؤٍ، فاستعادَ هذا مدينةَ أَيْلَةَ بعدَ أن فرَّ منها أَرناطُ عائداً إلى الكَرَكِ، ثم أَوقعَ بأسطولِ القَراصنةِ أمامَ حَوْراءَ، فدمَّرَهُ، وأسرَ جميعَ رجالِهِ. وأرسلَ بعضَ الأسْرى إلى مدينةِ مِنَى قُرْبَ مَكَّةَ، فذُبِحُوا في مَوْسِمِ

الحجِّ، أَمّا الباقونَ فأخِذُوا إلى مصرَ حيثُ تمَّ الإجهازُ عَلَيْهِم. وأقسمَ صلاحُ الدينِ أَنَّه لن يَغْفِرَ لأرناطَ محاولتَهُ لانْتهاكِ حُرْمَةِ قبرِ الرسول صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

غادرَ صلاحُ الدينِ دمشقَ في ١٧ أيلول عام ١١٨٢ على رأسِ جيشٍ كثيفٍ يُريدُ فلسطينَ. وبعدَ أَنْ عبرَ الأردنَّ أغارَ على الجَليلِ، فدمَّرَ الحصونَ والقِلاعَ، وأَرسلَ السَّرايا في كلِّ جهَةٍ، فاصطدمَ بعضُها بجيشٍ صغيرٍ للصليبيّينَ قَدِمَ لمساعدتِهِم من وراءِ الأردنِّ فقضَوْا عليه، وقتلُوا أكثرَ رجالِهِ.

التقى صلاحُ الدينِ بالجيشِ الصليبيِّ الرئيسيِّ عندَ صَفُّورِيَّةَ، فأسرعَ بالهَجوم على مُقَدِّمتِهِ، فقَضَى عليها. فانسحبَ الصليبيونَ إلى الجنوبِ وعسكرُوا

عند عينِ جَالوتَ، والتزَمُوا خُطـَّةَ الدِّفاعِ. وحاولَ صلاحُ الدينِ استدراجَهُم لِقِتالِهِ، فلم يفعلُوا. وعندئذٍ رفعَ مُعَسْكَرَهُ، وقفلَ راجعاً إلى ما وراء الأرْدُنّ.

الهدنة الثالثة

في عامِ ١١٨٥ ماتَ ملكُ بيتِ المقدسِ بلدوينُ الرابعُ، وخَلَفَهُ على عرشِ المملكةِ طِفلٌ صغيرٌ كانَ ابناً لشقيقتِهِ. فَجُعِلَ رِيموندُ كونتُ طرابلسَ وَصِيّاً على العرشِ.

أدركَ رِيموندُ ضعفَ موقفِ الصليبيينَ، فأرسلَ إلى صلاحِ الدينِ يطلبُ عَقْدَ هدنةٍ مُدَّتُها أربعُ سنواتٍ، فوافقَ صلاحُ الدينِ، وتَمَّ التَّوْقِيعُ. وبعدَ سنةٍ ماتَ الملكُ الطفلُ، فرفعُوا على عرشِ بيتِ المقدسِ أمَّهُ سِبيلا التي أَجلسَتْ إلى جانِبِها زوجَها غَايَ ليشارِكَها الحُكْمَ.

ومرةً أخرى سال لُعابُ القِرصَانِ أرناطَ أميرِ الكَرَكِ لمرأى القوافِلِ الإسلاميةِ وهي تمرُّ قريباً من حِصْنِهِ بينَ الشامِ ومصرَ. ففي نهايةِ سنةِ ١١٨٦ حدثَ أَنَّ قافلةً ضخمةً ارتحلتْ منَ القاهرةِ في حراسةِ قوةٍ صغيرةٍ من العساكرِ لحمايَتِها من غاراتِ البَدْوِ. و بينما كانتْ تَتَّجِهُ إلى مُؤابَ انقضَّ عليها فُجَاْءَةً أَرناطُ، فقتلَ العساكِرَ، وحملَ إلى قلعتِهِ بالكَرَكِ التُّجّارَ وأسْراتِهِم وما في حَوْزَتِهِم من بضائعَ.

وتجاوزتِ الغنيمةُ في الضخامةِ كلَّ ما سبقَ

و بلغتِ الأنباءُ صلاحَ الدينِ الذي حَرَصَ على احترامِ المعاهدةِ، فأَرسلَ إلى أرناطَ يطلبُ منه إطلاقَ سَراحِ جميعِ الأسرى ودَفْعَ التعويضِ المُناسبِ عن خسائرِهِم. غيرَ أَنَّ أرناطَ رفضَ استقبالَ رُسُلِ صلاحِ الدينِ، فتوجَّهُوا إلى بيتِ

المقدسِ، ورفعُوا شكواهُم إلى الملكِ الجديدِ غايَ. فاهتمَّ غايُ للأمْرِ، وأمرَ أرناطَ بدفعِ التعويضاتِ. ولكنَّ أرناطَ لم يحفِلْ بأمرِ الملكِ، فلم يَشأ الملكُ أن يفرِضَ عليه رأيَهُ. ومرةً أخرى باتَتِ الحربُ أمراً لا مَفَرَّ مِنه.

خافَ بُوهِمُنْدُ أَميرُ أنطاكيةَ، وريموندُ كونتُ طرابلسَ، مَغَبَّةَ ما فعلَهُ أَرناطُ، فأَرسَلا إلى صلاحِ الدينِ يَرْجُوانِهِ أن يقبلَ تجديدَ الهُدنةِ مَعَهُما. وطلبَ ريموندُ أن تشملَ الهدنةُ أملاكَ زوجتِهِ في طَبَرِيَّةَ أيضاً. ووافقَ صلاحُ الدينِ. أما الصليبيونَ في مملكةِ بيتِ المقدسِ، فقد عدُّوا ما فعلَهُ ريموندُ خيانةً وجُبْناً.

بدء العمليات العسكرية

تلقّى الأفضلُ، وهو ابنٌ صغيرٌ لصلاحِ الدينِ،

وقائدُ مَوْقعِ بانياسَ، تلقّى أمراً من والدِهِ بإرسالِ قوةٍ استطلاعيةٍ إلى فلسطينَ باتجاهِ عَكّا. فبعثَ بسبعةِ آلاف ٍ تحتَ قيادةِ الأميرِ مُظَفَّرِ الدينِ كُوكْبَرِي. فلمّا وصلوا إلى صَفّورِيَّةَ اصطدَمُوا بقوات ٍمن فرسانِ الداو يةِ والإسبتاريةِ. و بعدَ معركةٍ ضاريةٍ دامت ساعاتٍ، قَضَوْا على كلّ القواتِ المعاديةِ، وقتلوا مُقَدَّمَ الإسبتاريةِ، وعادوا مساءً إلى قاعِدَتِهم وهم يحمِلُون رُؤوس الإفْرَنْجِ على أَسِنَّةِ رِمَاحِهم. ولم ينجُ من القتلِ سوى فارس ٍ واحدٍ من الداو يَةِ مضى يركضُ على فرسِهِ، أشعثَ الشعرِ، تَنْزِفُ دماؤه، يصيحُ بأعلى صوتِهِ بِما حلَّ من فاجعةٍ كبيرةٍ مُرَوِّعَةٍ.

جَزِعَ رؤساءُ الداو يةِ والإسبتاريةِ لما حلَّ بقواتِهم، فأَرسلوا إلى جميعِ فرسانِهم في المملكةِ يطلبونَ منهمُ الاجْتماعَ بِهم في قَرْيَةِ الفُولَةِ. وفي أَوَّلِ

أَيّارَ وصلَ إلى الفُولةِ منهم ما يَزيدُ على مِائَتَيْنِ.
فسارُوا من الفُولَةِ إلى النَّاصِرَةِ، فصاحَ مُقَدِّمُ الراويَّةِ بأَهلِ الناصِرَةِ قائِلاً:

ـــ إنَّ المعركةَ قادمةٌ. فاتْبعونا لِتَجْمَعوا الغَنَائِمَ، وتُكَبِّلُوا أَسرى المسلمينَ.

ولم يكادُوا يجتازونَ التلَّ الواقعَ خلفَ الناصرةِ، حتى رَأَوُا الفرسانَ المسلمينَ يُورِدونَ خُيولَهُم الماءَ في الوادِي الواقعِ أسفلَ التَّلِّ. وانتهَزَها الداويةُ والإسبتاريةُ فُرْصَةً، فهاجموا المسلمينَ قَبْلَ أن يركبُوا خُيولَهُم. ولكنَّ المسلمينَ رَدُّوا عليهم بهجومٍ مُعاكِسٍ، ثم طَوَّقوهُم، وقتلوهُم عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهم. ولم ينجُ منهم سِوى ثلاثةِ جَرْحى كانَ مُقَدَّمُ الداويةِ واحداً منهم.

وعندما خرجَ سُكانُ الناصرةِ ليجمعوا الغنائمَ التي وعدَهُم بها مُقَدّمُ الداو يةِ، طَوّقَهُم المسلمونَ، وساقُوهم إلى الأسْرِ.

كانَ رِيموندُ كونتُ طرابلسَ في مدينةِ طَبَرِيَّةَ التي هي مُلْكُ زوجتِهِ. فلمّا سَمِعَ بما جَرى ذَهَلَ من هَوْلِ الكارِثَةِ، وَعَدَّ نفسَهُ مسؤولاً عنها، لأَنَّها جَرَتْ في أَمْلاكِ زوجتِهِ التي تشمُلها الهدنةُ. فأعلنَ نقضَ المعاهدةِ التي عقدَها معَ صلاحِ الدينِ، وأَسرعَ إلى بيتِ المقدسِ حيثُ أعلنَ خُضوعَهُ للملكِ غايَ.

صلاح الدين يتحرك

وفي هذهِ الأثناءِ كانَ صلاحُ الدينِ يحشدُ جيشاً ضخماً في حَوْرانَ. و بينما كانتِ العساكرُ تتوافَدُ من جميعِ أَقطارِ مملكتِهِ، توجَّهَ على رأسِ قوةٍ صغيرةٍ إلى

طريقِ مكّةَ ليتولّى حِراسةَ قافلةِ الحجّاجِ العائدينَ من المدينةِ المنوَّرةِ حتى يطمئنَّ إلى أَنَّ أرناطَ لن يحاولَ مرةً أخرى القيامَ بأعمالِ قُطّاعِ الطرقِ.

وفي يوم الجمعةِ ٢٦ حزيران سنة ١١٨٧، استعرضَ صلاحُ الدينِ عساكرَهُ في عَشْتَرَا بحَوْرَانَ، فتولّى هو قيادةَ قلبِ الجيشِ، وجعلَ ابنَ أَخِيهِ تقيَّ الدينِ على الجناحِ الأيْمَنِ، ومُظَفَّرَ الدينِ كُوكبوري على الجناحِ الأيْسرِ. وخرجَ الجيشُ في تعبئةِ القِتالِ إلى خِشفِينَ، ومنها إلى جُنوبِ بحيرةِ طبريةَ. وظلَّ صلاحُ الدينِ بهذا الموضعِ خمسةِ أيّامٍ، كانت كَشّافتُهُ خِلالَها تجمعُ كلَّ ما يتعلّقُ بالقواتِ الصليبيةِ من أَخبارٍ. وفي أولِ تَموّزَ عبرَ نهرَ الأردُنِّ عندَ سِبِّ النَّبْرَةِ. وفي اليوم التالي عسكرَ بجيشِهِ في كَفْرَسبتَ، في التلالِ الواقعةِ على مسافةِ خمسةِ أميالٍ إلى الغربِ من بحيرةِ طبريةَ.

والصليبيون يتحركون

أَمّا الملكُ غَايُ فإِنّه دعا كبارَ قُوّادِهِ وأَتباعَهُم إلى الاجتماعِ به في عَكّا. وإذْ حَرَصَ الداويةُ والإِسبتاريةُ على الانتقامِ لما حلَّ بأصحابِهِم في صَفُّورِيَّةَ والناصرةِ، حَشَدُوا كلَّ ما بِوُسْعِهِم أَنْ يحشُدُوه من فرسانٍ، فلم يتركوا سِوى حامياتٍ صغيرةٍ للدفاعِ عن القِلاعِ الموكولِ أمرُها إِليهم. ولما وصلتِ الأنباءُ بأَنَّ صلاحَ الدينِ عبرَ الأردنَّ، عقدَ الملكُ غايُ مجلساً مع باروناتِهِ في عكّا. فوقفَ الكونتُ رِيموندُ فقالَ:

ــ إنَّ الجيشَ الذي يهاجمُ في حَرارةِ الصَّيْفِ اللافحةِ لن تكونَ الأحوالُ في مصلحتِهِ. فالرأيُ عِندي أَنْ تقومَ خُطّتُنا على التزامِ الدّفاعِ المُطْلَقِ.

فإذا لم يتعرَّضِ الجيشُ المسيحيُّ للهزيمةِ، فلن يكونَ بوسعِ صلاحِ الدينِ أن يُبْقِيَ قواتِهِ الضخمةَ فترةً طويلةً في هذه البلادِ الجافَّةِ اللافحةِ الحرارةِ. وسوفَ ينسحبُ في فترةٍ وجيزةٍ. وفي الوقتِ نفسِهِ تصلُنا الأمدادُ من أنطاكيةَ، فنتقوّى بِها.

كانَ معظمُ الفُرسانِ يميلونَ إلى اتِّباعِ هذهِ النصيحةِ، غيرَ أَنَّ كُلاً من أَرناطَ ومُقَدَّمِ الداويةِ جيرارَ اتَّهمَ ريموندَ بالجُبْنِ، وأَنَّه باعَ نفسَهُ إلى المُسْلمينَ. واستطاعا أخيراً أَن يُقنِعَا الملكَ، فأصدرَ الأوامرَ إلى الجيشِ بالتحرُّكِ نحوَ طبريةَ.

وفي يوم ٢ تمّوز وصلوا إلى صفّوريَّةَ، فعسكروا فيها. وهي تُعَدُّ مِن أَحسنِ المواضعِ الملائمةِ لأنْ يقومَ بها معسكرٌ، لِما توافرَ بِها من الماءِ والمراعي لِخُيولِهِم.

مناورات إسلامية ناجحة

لمّا عَلِمَ صلاحُ الدينِ بأنّ الصليبيينَ عسكرُوا في صفوريةَ، لم يشأْ أنْ يَسيرَ إليهم و ينازلَهم في ذلكَ المكانِ، بل أرادَ استدراجَهُم إلى مكانٍ آخرَ لا يتوفَّرُ فيه الماءُ والمَرْعَى. فتركَ جيشَهُ في كَفْرَسَبْتَ، وذهبَ على رأسِ كتيبةٍ خفيفةٍ إلى مدينةِ طبريةَ، فهاجمَها واحتلَّها، فلجأتِ الكونتيسةُ زوجةُ رِيموندَ إلى القلعةِ، واعتصمتْ بِها معَ الحاميةِ بعدَ أن أنفذَتْ رسولاً إلى زوجِها تُخْطِرُه بما حَدَثَ.

تركَ صلاحُ الدينِ قوةً صغيرةً تتولى حصارَ القلعةِ، وعادَ ببقيةِ كتيبتِهِ إلى معسكرِهِ في كفرسبت ينتظرُ رَدَّةَ الفِعْلِ عندَ الفِرنجِ لما فعلَهُ بمدينةِ طبريةَ.

وصَحَّ ما توقَّعَهُ صلاحُ الدينِ. إذْ ما كادَ رسولُ

الكونتيسةِ يصلُ إلى المعسكرِ الفرنجيِّ في صفورية حاملاً الأخبارَ السَّيِّئَةَ، حتى دعا الملكُ غايُ إلى اجتماعٍ يعقدُ في خيمتِهِ للتداوُلِ في الأمرِ. وفي الاجتماعِ راحَ أولادُ الكونتيسةِ، وقَدِ اغْرَوْرَقَتْ عيونُهُم بالدموعِ، يَتَضَرَّعونَ إلى الملكِ ليسيرَ بالجيشِ إلى طبريةَ لإنقاذِ أمِّهِم. واشتدَّ تأَثُّرُ الفرسانِ مما علِمُوا من استماتَةِ هذهِ المرأةِ الباسِلةِ في الدفاعِ عن قلَعِتها. ولكنَّ الكونتَ رِيموندَ كان الوحيدَ الذي أَدركَ ما يَرْمي إليهِ صلاحُ الدينِ من وراءِ مناورَتِهِ هذهِ، فوقفَ وقالَ:

ــ يا قومُ، إنَّ المدينةَ مدينةُ زوجَتِي، والمرأةُ المحاصرةُ في قلعتِها هي زَوْجتي. ومعَ ذلكَ فإنّي أفَضِّلُ أن تسقطَ القلعةُ، وتُؤسَرَ زوجتي، على المخاطرةِ بالجيش المسيحيِّ كلِّهِ. إني أكرِّرُ ما قلتُهُ لكم في

عَكّا. علينا أَنْ نتمسَّكَ بخُطـَّةِ الدفاعِ. وأنا واثقٌ أَنَّ صلاحَ الدينِ لن يُنازِلَنا ما دُمْنا هنا في صَفّوريّة، وأَنَّه إذا يَئِسَ من مسيرِنا إليه، فسوفَ يرجعُ من حيثُ أتى، لأنَّه لا يستطيعُ البقاءَ طويلاً بجيشِهِ الكثيفِ في هذهِ المنطقةِ الشديدةِ الحرارةِ. وعندئذٍ نستردُّ مدينتَنا، ونفُكُّ مَن يقعُ في الأسرِ من رجالِها ونسائِها.

ومرةً أخرى وقفَ أرناطُ، فاتَّهم الكونتَ بالجُبْنِ والخِيانةِ. وأَيَّدَهُ مقدمُ الداويةِ جِيرارُ وسائرُ الفرسانِ، فتقرَّرَ أن يسيرَ الجيشُ إلى طبريةَ. وهذا هو بعينِهِ ما كانَ يريدُه صلاحُ الدينِ.

وصلتْ أخبارُ كلِّ ذلكَ إلى صلاحِ الدينِ. كما علمَ أنَّ الصليبيينَ سلكوا إلى طَبريةَ طريقاً يبعدُ عن معسكرِهِ في كفرسبتَ خمسةَ أَميالٍ إلى الشمالِ.

وعندئذٍ تحركَ بجيشِهِ ليقطعَ عليهم الطريقَ، وعسكرَ بِهِ جنوبَ حِطّينَ، عندَ النقطةِ التي يبدأ الطريقُ فيها بالانحدارِ نحوَ طبريةَ وبُحَيْرَتِها. وهناكَ عَبَّأَ جيشَهُ بحيثُ جَعَلَ البحيرةَ إلى ظهرِهِ، وقريةَ حِطّينَ إلى يمينِهِ. وراحَ ينتظرُ الصليبيينَ.

في صبيحةِ يومِ الجمعةِ تحرَّكَ الجيشُ الصليبيُّ من الحَدائقِ الخُضْرِ بصَفّوريةَ شاقّاً طريقَهُ فوقَ التلالِ الجُرْدِ باتجاهِ طبريةَ. ووَفْقاً للعُرْفِ الإقطاعيِّ، تولّى قيادةَ المُقدمةِ الكونتُ ريموندُ، لأنَّ الجيشَ يسيرُ في أملاكِهِ، وتَوَلّى الملكُ قيادةَ القلبِ. أمّا المؤخرةُ فقد تولّى قيادَتَها أرناطُ أميرُ الكَرَكِ. كانَ الجوُّ شديدَ الحرارةِ، ولم يَجِدِ الصليبيّونَ ماءً خِلالَ الطَّريقِ. فلم يَلْبَثِ الرجالُ أن اشتدَّ بِهِمُ الظمأ، هُم وخُيولُهم. وترتَّبَ على ذلكَ أن أبْطَؤوا في سَيْرِهِم.

وزادَ في مِحْنَتِهِم ما كانَ يشنُّهُ عليهم رُماةُ المسلمينَ من غارات ٍسريعةٍ متلاحقةٍ، يَفرّونَ بعدَها قبلَ أنْ يتمكَّنَ الصليبيونَ من الرَّدِّ عَلَيْها.

بعدَ الظُّهرِ وصلَ الفرنجُ إلى الهَضْبَةِ التي تقعُ حِطينُ خلفَها مُباشرةً، فوجدوا المسلمينَ أَمامَهم في أَسفلِ سَفْحِ الهضبةِ قد سدّوا عليهم الطريق، وحالوا بينَهم و بينَ الوصولِ إلى البحيرةِ. لم يبقَ أمامَهم إذنْ إلاّ أن يَنْحَرِفُوا يَساراً، و يَرْتَقُوا قِمَّةَ الهضبةِ المسماةِ بقرُونِ حِطّينَ، ثم ينحدروا مِنها إلى قَريةِ حِطينَ الكثيرةِ المِياهِ. ولكنَّ فرسانَ الداويةِ الذين كانوا في المؤخرةِ، والذين عانَوْا كثيراً من غاراتِ رُماةِ المسلمينَ عليهم، أرسلُوا إلى الملكِ الذي كانَ يقودُ القلبَ، يخبرونَه أَنَّهم في غايةِ التَّعَبِ والإرهاقِ، وأَنَّهم لن يمضُوا إلى أبعدَ مِن ذلكَ هذا اليومَ. وعلى

الرُّغْمِ مِن معارضةِ القادةِ لِفكرةِ التوقُّفِ في هذا المكانِ القاحلِ، فإنَّ الملكَ قرَّرَ النزولَ لِشِدَّةِ ما رأى من تَعَبِ الرجالِ والخيولِ والدوابِّ. فلما عَلِمَ الكونتُ بقرارِ الملكِ، ركبَ مِن المُقَدِّمَةِ، وارتدَّ إلى القلبِ وهو يصيحُ في غضبٍ:

ــ يا للهِ! انتهتِ الحربُ. لقد هَلَكْنا وزَالتِ المملكةُ.

ولكنَّ الملكَ لم يَحْفِلْ بِاعتراضِهِ، وأَمرَهُ بالبحثِ عن مصدرٍ للمياهِ يُقيمونَ معسكرَهُم حَوْلَهُ. فقادَهُم إلى تِجاهِ قُرونِ حِطّينَ حيثُ تَقَعُ بئرٌ، فنزلوا هناكَ. ولكنْ يا للأسَفِ! لقد كانتِ البئرُ مَرْدومةً. لقد سبقَهُم المسلمونَ إليها، وغَوَّرُوا ماءَهَا، ورَدَمُوهَا.

أَمّا صلاحُ الدينِ الذي عسكرَ بجندِهِ في الوادِي

المُعْشِبِ مِن تَحْتِهِم، فإنَّه لم يستطعْ أن يكتمَ فرحَه وسرورَه، إذْ ساقَ أعداءَه إلى حيثُ يُريدُ هو، وباتُوا في قبضةِ يَدِهِ يَقْضي عليهِم متى شاءَ.

أَمضى الصليبيونَ ليلَتَهم في بُؤسٍ، يستمعونَ إلى الأهَازيجِ والأدْعِيَةِ والأناشيدِ التي كانتْ تَتَعالَى من خِيامِ المسلمينَ تَحْتَهم. وانطلقَ مِن المعسكرِ الصليبيِّ جماعاتٌ من العساكرِ لالْتِماسِ الماءِ، ولكنَّهم لَقُوا مَصْرَعَهم على أَيدي المسلمينَ الذينَ كانوا يُراقِبونَهم بيَقَظَةٍ تامَّةٍ.

وتحتَ جُنْحِ الظلامِ، حَرَّكَ صلاحُ الدينِ جيشَهُ، وعَبَّأَهُ لِلْقِتالِ، ومَدَّ جَناحَيْهِ يَميناً ويَساراً بحيثُ طوّقَ الجيشَ الصليبيَّ كُلَّهُ. وما كادَ يَبْزُغُ فجرُ يومِ السبتِ ٤ تموز، حتى اكتشفَ الصليبيونَ أنَّ المسلمينَ قد سدّوا عليهِمُ المنافذَ، وأحاطُوا بِهِم مِن

ثلاثِ جَوانبَ. و يقولُ أَحدُ المؤرخينَ الفِرنجِ: لم يكنْ بوسعِ هِرَّةٍ أن تُفْلِتَ من الشبكةِ المنصوبَةِ.

يوم حطين ٤ تموز ١١٨٧

ما كادتِ الشمسُ تُرسلُ أولَ خيوطِها الذهبيةِ، حتى بدأَ المسلمونَ بالهجومِ. فتقدمَتْ فرقةُ الرُّماةِ الخَيّالةِ، فأَمطرتْ خيلَ العدوِّ وابلاً من سِهامِها، لأنَّ الفارسَ الصليبيَّ المُثْقَلَ بالدروعِ مِن رأسِهِ إلى قدمِهِ، إذا فَقَدَ جوادَه غدا كُتْلَةً مِن الحديدِ الثقيلِ، لا يَقْدِرُ على حركةٍ أَو قِتالٍ. فلمّا أفرغَ الرُّماةُ كَنَائنَهُم، انسحبُوا مِن المَيْدانِ لإعادةِ شَحْنِها بالسِّهامِ، بينما تقدَّمَ القلبُ والجناحانِ بخَيْلِهم ورَجْلِهِم، فاشتبكُوا معَ العدوِّ بالسيوفِ والرماحِ وهُم يصيحونَ: اللهُ أكبرُ.. اللهُ أكبرُ..

أما الصليبيّونَ فلم يكنْ يَدورُ في رؤوسِهم سِوى فكرةٍ واحدة، هي: الماء.. الماء. وحاولتْ جماعةٌ كبيرةٌ منهم أن تَشُقَّ لها طريقاً إلى بحيرةِ طبريةَ التي كانتْ تلمعُ مِياهُها تحتَ أبصارِهم، ولكنَّ المسلمينَ ردّوهُم على أَعقابِهِم. ولاحظَ صلاحُ الدينِ أنَّ الصليبيين يَقِفُون في مكانٍ مُمْتَلِىءٍ بالأعشابِ والشُّجَيْراتِ الجافَّةِ، فأَمرَ بإِحراقِ هذهِ الأعشابِ، فمضى الجنودُ فاشعلُوا فيها النارَ، فاجتمَع على الفِرنجِ حرُّ العَطَشِ، وحَرُّ النارِ والدُّخانِ، وحرُّ القِتالِ. فَلَقِيَ عددٌ كبيرٌ مِنهم مصرَعَهُم من فَوْرهم، بينما وقعَ آخرونُ في الأسْرِ، وأَمّا الآخرونَ فقدِ اسْتَلْقَوْا على الأرضِ، والدماءُ تَنْزِفُ من جراحِهِم، وقد تَوَرَّمَتْ شِفاهُهُم مِنَ العَطَشِ. حتى إنَّ خَمسةَ فرسانٍ مِنهم جَاؤوا إلى أَحدِ قادةِ المسلمينَ، وتضرَّعُوا إليه أن يُجْهِزَ عليهم حتى يَنْتَهِيَ عَذابُهُم.

أدركَ الملكُ غـايُ أن الكارثةَ باتَتْ وَشيكةً، فأَمرَ فرسانَهُ بالانسحابِ يَساراً إلى تلِّ حِطّينَ للتمركُزِ على قِمَّتِهِ. وهناكَ لم يستَطيعوا أن يَنْصِبوا غيرَ خَيْمةٍ واحدةٍ للملكِ أحاطَتْ بها قوةٌ كبيرةٌ من الفرسانِ لحمايَتِها.

استدعى الملكُ غايُ الكونتَ رِيموندَ، وشرحَ لهُ خطورةَ الموقفِ، ثم أَمَرهُ بالقيامِ بهجومٍ مركَّزٍ لاختراقِ صُفوفِ المسلمينَ والوصولِ إلى البحيرةِ. جمعَ الكونتُ كلَّ فرسانِهِ، ثم شنَّ بِهم هجوماً صاعِقاً مُستَميتاً على مَيْمَنَةِ الجيشِ الإسلاميِّ التي كانتْ تحتَ قيادةِ تَقِيِّ الدينِ ابنِ أَخي صلاحِ الدينِ. فلما رأى تقيُّ الدينِ استماتَتَهُم في الهجومِ، لم يَشَأْ أن يُصادِمَهم، بل فَسَحَ لهم في الصفوفِ ثُغْرَةً يَمرّون مِنها، فلمّا مرّوا سدَّ الثُّغْرَةَ، فلم يستطيعوا العودةَ إلى رِفاقِهِم. وإذْ

خافوا أن يقضيَ المسلمونَ عليهم بعدَ انقطاعِ اتِّصالِهِم بجيشِهِم، فَرُّوا من ساحةِ المعركةِ وقد استبدَّ بِهِمُ البُؤسُ، واتَّخذوا طريقَهُم إلى طرابلسَ حيثُ ماتَ قائدُهُم الكونتُ بعدَ أيامٍ حُزْناً وقَهْراً.

لم تَمْضِ ساعةٌ أخرى مِن القتالِ، حتى لجأَ قائدانِ آخرانِ إلى ما لجأَ إليهِ الكونتُ ريموندُ، إذْ تمكَّنَ باليانُ إبلينُ ورينالدُ صاحبُ صَيْدا أن يَشُقّا لأنْفُسِهِما طريقاً إلى خارجِ أرضِ المعركةِ، فكانا آخِرَ مَن هَرَبَ.

لم يبقَ لَدى الصليبيينَ بارقةٌ أَمَلٍ، فأحاطَ مَن بَقِيَ من فُرْسانِهِم بخيمةِ المَلِكِ للدفاعِ عنها حتى المَوْتِ. ولما رَأَوُا المسلمينَ يُطارِدُونَهم، حملُوا عليهم حملةً صادقةً زادَها اليَأْسُ شِدَّةً وقوةً، فردُّوهم على أَعْقابِهِم، وكادوا يُضَعْضِعُونَ صُفوفَهُم. ولكنَّ

المسلمينَ صَمَدُوا لَهُم، وردّوهم إلى التَّلِّ، وأَعْمَلُوا السيفَ في رِقابِهِم، حتى كادُوا يَأْتونَ عليهم جَميعاً.

ولْنَسْتَمِعِ الآنَ إلى المَلِكِ الأَفْضَلِ بنِ صلاحِ الدينِ يُحدِّثُنا عنِ اللَّحظاتِ الأخيرةِ من المعركةِ، إذْ يقولُ:

ــ كنتُ إلى جانب أَبي في ذلكَ المَصافِ (المعركةِ). وهو أول مصاف شاهَدْتُهُ. فلما صارَ مَلِكُ الفرنجِ على التَّلِّ في تلكَ الجماعةِ، حملوا حملةً مُنْكَرَةً على ما بِإزائِهِم من المسلمينَ حتى أَلْحَقوهُم بِوالِدِي. فنظرْتُ إليهِ وقدْ عَلَتْهُ كآبَةٌ، وارْبَدَّ لونُهُ، وأَمسكَ بِلِحْيَتِهِ، وتقدَّمَ وهوَ يَصيحُ: كَذَبَ الشَّيْطانُ! فعادَ المسلمونَ على الفِرنجِ، فرجعُوا وصَعِدوا التّلَّ. فلما رأيتُ الفِرنجَ قد عادُوا، والمسلمونَ يَتبعونَهُم، صِحْتُ مِن فَرَحِي: هَزَمْنَاهُم. فعادَ الفرنجُ، فحملُوا حملةً

ثانيةً مثلَ الأولى، أَلحقُوا المسلمينَ بوالِدِي. ففعلَ مِثلَ ما فعلَ أولاً. وعطفَ المسلمونَ عليهم، فَأَلحقوهُم بالتَّلِّ. فَصِحْتُ أنا أيضاً: هَزَمْناهُم. فَالْتَفَتَ والدِي إليَّ وقالَ: اسْكُتْ. ما تَهْزِمُهُم حتى تَسْقُطَ تلكَ الخيمةُ. فإنَّه لَيَقولُ لي ذلكَ، إذْ سَقَطَتِ الخيمةُ، فنزلَ السُّلطانُ عَن جوادِهِ، وسَجَدَ شُكراً لله تَعالى، وبَكَى من فَرَحِهِ.

ولْنَعُدِ الآنَ إلى المُؤرِّخِينَ لِيُخْبِرونا كيفَ هَوَتِ الخيمةُ.

يقولُ المؤرخونَ: كانَ مِن أَثَرِ هذهِ الهجماتِ المُتكرِّرَةِ أَنِ اشتدَّ العطشَ والإرهاقُ بالفرسانِ الصليبيينَ حتى أَصبحَوا عاجِزينَ عَنِ القتالِ. فنزلوا عَن خَيْلِهِم، وافترَشُوا الأرضَ وهم يلهَثُون من التَّعَبِ والظَّمَأ. وحينَ صَعِدَ المسلمونَ إليهم

لإلقاءِ القَبْضِ عليهم، لم يَتَمَكَّنُوا من الوقوفِ على أَقدامِهِم. بل لم يستطيعوا أن يُسَلِّموا سُيُوفَهُم عَلامةَ الاسْتِسْلامِ. فقبضَ المسلمونَ عليهم، ووضعوا في أَيدِيهم الأغْلالَ.

* * *

أُبيدَ الجيشُ الفرنجيُّ كلُّه في هذهِ المعركةِ. وكانَ أكبرَ جيشٍ اسْتطاعَ الفرنجُ حشدَهُ لِمعركةٍ. قُتِلَ بالسيفِ والرمحِ ما يزَيدُ على عشرينَ ألفاً، وزادَ عددُ الأسْرى على اثْنَيْ عَشَرَ ألفاً. وقد شَمِلَ القتلُ كلَّ سِلاحِ الفرسانِ. أما الذين اسْتَسْلَموا فوقَ التَّلِّ، فلم يكونوا إلاّ بضعَ عَشَراتٍ، فيهمُ الملكُ غايُ وأَخوه، وأَرناطُ أميرُ الكَرَكِ، وصاحبُ جُبَيْلٍ، وابنُ هَنْفَرِي، وعددٌ لابأسَ بِهِ من فرسانِ الداويَّةِ والإسبتاريةِ مع مُقَدَّمَي الطائفَتَيْنِ.

في خيمة صلاح الدين

بعدَ أَنِ انْجلى غُبارُ المعركةِ، نَصَبَ المسلمونَ خيمةَ السُّلطانِ، فَجَلَسَ. ثم استحضرَ كِبارَ الأسرى. فدخلَ عليه الملكُ غايُ وشقيقُهُ، وأرناطُ أَميرُ الكَرَكِ، وعددٌ كبيرٌ من باروناتِ المملكةِ، فاستقبلَهُم صلاحُ الدينِ في لُطْفٍ وبَشاشةٍ، وأجلسَ الملكَ غايَ إلى جانِبه، وناوَلَهُ كأساً من شَرابٍ مُثلَجٍ، فشربَ مِنها، وكانَ على أَشَدِّ حالٍ من العطشِ، ثم ناولَ أَرناطَ ما بَقِيَ في الكأسِ، فقالَ السلطانُ للتَّرْجُمانِ:

ـ قلْ للملكِ: أنتَ الذي سَقَيْتَهُ، لا أنا.

ذلك أنَّ قوانينَ الضيافةِ العربيةِ تَمْنَحُ الأمانَ للأسيرِ إذا شَرِبَ مِن يَدِ آسِرِهِ. ثم نهضَ السُّلطانُ وأَقبلَ على أَرناطَ وقالَ لَهُ:

ـــ هاأنذا أَسْتَنْصِرُ لمحمدٍ صلّى الله عليه وسلّم. ولكنّي أَعرِضُ عليكَ الإسلامَ أَوّلاً.

فلمّا لم يَقْبَلْ بالإسلامِ، سلَّ السلطانُ سَيْفَهُ، وضربَهُ فَحلَّ كَتِفَهُ. وتَمَّمَ عليهِ مَنْ حضَرَ، ثم سُحِبَتْ جُثَّتُهُ الخَبِيثَةُ، فطُرِحَتْ على بابِ الخيمةِ.

فلّما رأى الملك غايُ ما جَرى، ارتَعَدتْ فرائصُهُ مِن الخوفِ، وظنَّ أنَ النَّوْبَةَ آتيةٌ عليه. ولكن السُلطانَ هَدَّأَ جَأْشَهُ، وطيَّبَ خاطِرَهُ، وقالَ لَهُ:

لم تَجْرِ عادةُ الملوكِ أَنْ يَقْتُلوا الملوكَ. وأَمّا هذا فإنَّه تجاوزَ حَدَّهُ، فجَرى ما جَرى.

ثم أَمَرَ السُلطانُ بقتلِ كلِّ فارسٍ أسيرٍ يَنْتَمي إلى طائفتَي الداويةِ والإسبتاريةِ، لِمَا دَأَبُوا عليهِ مِن

شِدَّةِ الكَيْدِ لِلإسلامِ والمسلمينَ. ولم يُبْقِ إلاّ على مُقَدَّمِ الداوِيةِ وَحْدَهُ.

❊ ❊ ❊

وجَرى حَمْلُ الأسْرى إلى دمشقِ حيثُ تهيَّأَتْ للبارونـاتِ أَسبابُ الراحةِ في مُعْتَقَلِهم. أَمّا الأسرى الفقراءُ، فقد تقرَّرَ بَيْعُهم في سوقِ الرَّقيقِ. وبلغَ مِنْ كَثْرةِ الأسْرى بهذهِ السوقِ أَنْ هَبَطَ سِعرُ الأسيرِ الواحدِ إلى ثلاثةِ دنانيرَ. وأَضحى بِوُسْعِ الشَّخْصِ أَنْ يَشْتَرِيَ أُسْرَةً سَلِيمةً بأجمعها، مؤلفةً من رَجُلٍ وزوجتِهِ وابنائِهِ الثلاثةِ وابنَتَيْنِ، بثمانينَ دِيناراً. بل إنَّ أحدَ المسلمينَ باعَ أسيرَهُ بِنَعْلَيْنِ، وعَدَّ ذلكَ صَفْقَةً رابحةً.

يقولُ المؤرِّخُ الإنكليزيُّ سْتِيفِنْ رَنْسِيمانْ:

« سَبَقَ للفِرَنْجِ في الشَّرْقِ أَنْ تعرَّضوا لِكوارث، إذْ وقعَ في الأسْرِ مُلوكُهُم وأمراؤهم. غيرَ أنَّ آسِريهم لم يكونُوا وقتَذاكَ سوى أمراء صغارٍ، لم يَرْمُوا إلاّ إلى إحرازِ بعضِ الكَسْبِ. أما ما جَرى في قُرونِ حِطّينَ فهو إبادةُ أَضْخَمِ جيشٍ لم تَحْشُدِ المملكةُ مثلَهُ من قَبْلُ. وضاعَ الصَّليبُ المقدسُ، وكانَ المنتصرُ سَيِّدَ العالمِ الإسلاميِّ كلِّهِ.

ما بعد حطين

لم يبقَ أَمامَ صلاحِ الدّينِ، بعدَ أنْ دَمَّرَ أعداءَهُ في حِطّينَ، سِوى أَنْ يُحَرِّرَ البلادَ التي غَدَتْ شِبْهَ خاليةٍ مِمَّن يُدافعُ عنها. ففي اليومِ التالي للمعركةِ وهو ٥ تمّوز، سَلَّمَتِ الكونتيسةُ قلعةَ طَبريةَ. وبعدَ خمسةِ أَيامٍ سقطتْ عكّا، ثم لَحِقَتْها نابلسُ بعدَ بضعةِ أَيامٍ، ثم يَافا التي فَتَحَها عَنْوَةً العادلُ أَخو صلاحِ الدينِ.

وسارَ صلاحُ الدينِ بنفسِهِ إلى الساحلِ، فأَذعنَتْ له صَيْدا بغيرِ قتالٍ في ٢٩ تمّوز. وحاولتْ بيروتُ المقاومةَ، ولكنَّها أذعنتْ في ٦ آب. ولم تلبثْ جُبَيْلُ أن خَضَعَتْ بعدَ سِتةِ أَيامٍ. وفي ٤ أَيْلول سقطَتْ

عَسْقَلانُ، ثم تبعَتْها غزَّةُ. ولم يَبْقَ مِن البلادِ سِوى اثنتَيْنِ: صورٍ، وبيتِ المقدسِ.

سارَ صلاحُ الدّينِ إلى بيتِ المقدسِ، فوصَلَها في ٢٠ أيْلول ١١٨٧. فضرَبَ عَلَيْها الحِصارَ، وشرَعَ في مهاجمةِ أَسوارِها حتى اسْتَسْلَمَتْ.

* * *

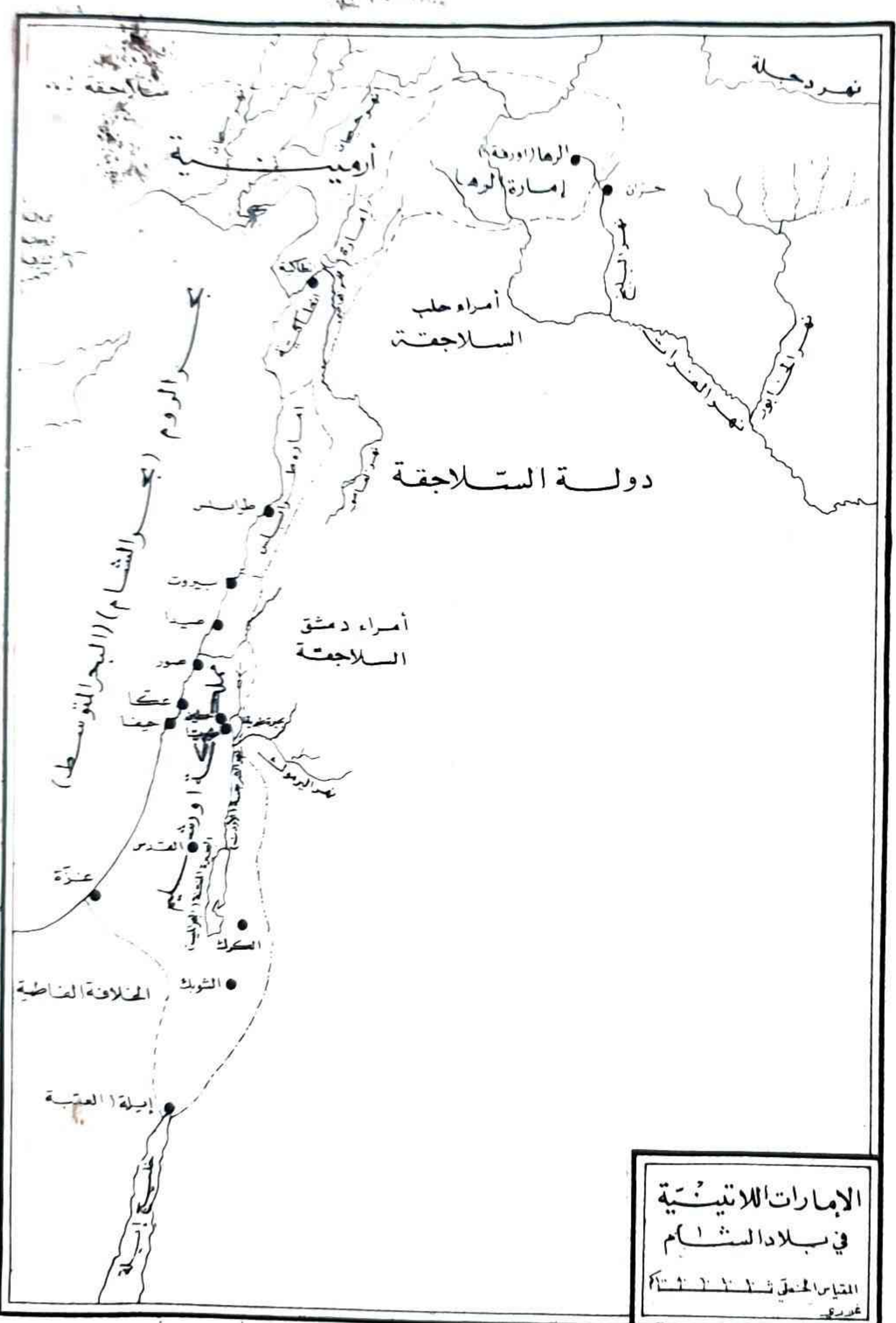
وفي يوم الجَمعةِ ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ، الموافق ٢ تشرين الأول ١١٨٧م، وهو يومُ الإسراءِ والمِعراجِ، دخلَ صلاحُ الدينِ الأيوبيُّ بيتَ المَقْدِسِ، وأَقامَ صَلاةَ الجُمُعَةِ في مَسْجِدِ الصَّخْرَةِ بعدَ انْقطاعٍ دامَ ٨٨ عاماً.

جلسَ السلطانُ بعدَ ذلكَ يُنظِّمُ أمورَ المدينةِ، فأمَرَ بإِصلاحِ ما تهدَّم من الأبنيةِ، وبإِزالةِ ما أَحدثَهُ

الفرنجُ فيها خِلالَ احْتلالِهِم، فطَهَّرَ المَسْجِدَ الأقْصى، وأزيلَ ما كانَ بِباحتِهِ من القاذوراتِ. وغُسِلَ هو والصخرةُ المقدسةُ بماءِ الوَرْدِ. ثم أزيلَ الصّليبُ الكَبيرُ الذي كانَ مرفوعاً على قُبّةِ الصَّخْرَةِ. ثم أَمَرَ السلطانُ بِعَمَلِ مِنْبَرٍ للجامعِ، فأَخبرُوه بأنَّ نورَ الدينِ محمودَ بنَ زَنكي كانَ قَد أَمَرَ بصُنْعِ منبرٍ في غايةِ الرَّوْعَةِ، لِيُقِيمَهُ في المسجدِ بعدَ فتحِ القدسِ، وأَنَّ هذا المنبرَ لا يزالُ في حلبَ. فأَمَرَ بإحضارِهِ، فأَحضرُوه، وأَقامُوه في المَسْجِدِ.

تمت

المحتوى



نهر دجلة
أرمينية
الرها (اورفة)
إمارة الرها
حران
أمراء حلب
السلاجقة
دولة السلاجقة
بحر الروم (بحر الشام) (البحر المتوسط)
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
أمراء دمشق
السلاجقة
نهر اليرموك
القدس
غزة
الكرك
الشوبك
الخلافة الفاطمية
إيلة (العقبة)
الإمارات اللاتينية
في بلاد الشام

الإمارات اللاتينية
في بلاد الشام
في أقصى اتساع لها.

المقياس: ٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ كم

كونتية الرها
الرها (أورفه)
سميساط
سروج
حران
منبج
بزاعة
حلب
عين طاب (عينتاب)
حصن المثقب
طرسوس
أذنه
المصيصة
أرمينية
إمارة أنطاكية
أنطاكية
السويدية
حارم
الأثارب
معرة النعمان
كفرطاب
اللاذقية
جبلة
شيزر
حماه
سلمية
انطرطوس (طرطوس)
إمارة طرابلس
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
دمشق
بانياس
حوران
عكا
حيفا
حطين
طبريا
بحيرة طبريا
نهر اليرموك
قيسارية
ارسوف
يافا
مملكة بيت المقدس
القدس
عسقلان
غزة
الكرك
الشوبك
البحيرة الميتة (البحر الميت)
الخلافة الفاطمية
إيله (العقبة)
بحر الروم (بحر الشام) (البحر المتوسط)
إمارات أتابكة الموصل
نهر الفرات
نهر الخابور
نهر دجلة
نهر العاصي

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات، من القرن الهجري الرابع الى العصر الحديث.

١ - معركة الحدث الحمراء	معركة الزلاقة
٣ - معركة حطين	معركة الارك
٥ - معركة المنصورة	معركة عين جالوت
٧ - معركة فتح القسطنطينية	معركة وادي المخازن
٩ - معركة ميسلون	معركة الجبل الأخضر

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صالح الأشتر

والدكتور عمر الدقاق

والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله



معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والدكتور عمر الدقاق
والأستاذ محمد الانطاكي
وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر



سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات
من القرن الهجري الرابع الى العصر الحديث:

١ - معركة الحدث الحمراء ٢ - معركة الزلاقة ٣ - معركة حطين ٤ - معركة الارك
٥ - معركة المنصورة ٦ - معركة عين جالوت ٧ - معركة فتح القسطنطينية ٨ - معركة وادي المخازن
٩ - معركة ميسلون ١٠ - معركة الجبل الأخضر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -